ڤیکاریا ماتر

الطبعة الأولى

01018537408

https://www.facebook.com/DarAures

Dar_aures2021@hotmail.com

عنوان الكتاب: فيكاريا ماتر

تأليـــــــــف: م/ أميرة محمود فتحي

مصمم الغـلاف: براء الهواري

إخراج فنـــــي: أميرة محمود

المقـــــــــاس: ١٤ × ٢١

رقم الإيـــــداع: ٢٠٢٢/٠٩٠٣

I.S.B.N: 978-977-86122-8-8

جمهورية مصر العربية_ القاهرة

رئيس مجلس الإدارة: صابرين حسن

مدير النشر: كريم دزيري

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

وأي اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابيه، يُعرِّض صاحبه للمسائلة القانونية.

أما الحقوق الملكية الفكرية والآراء والمادة الواردة في الكتاب فهي خاصة بالكاتب فقط لا غير.

رواية

ڤيكاريـــا ماتـــر

" ليأخُذ العدل مجراه ولو سقطت السماء "

أميرة محمود فتحي

« الإهداء »

إلىٰ أولئك الّذين لم يلهموا ذاتهم الصبر لرؤية نجاحي واتهموني بالفشل..
مرحبًا مِن داخل رابع أعمالي الأدبية.

إلىٰ مَن قال لي ذات يومٍ "سيادة اللا شيء" مرحبًا يا عزيزي، أظن صوت نجاحي قد وصل إليك.

إهداء إلىٰ نفسي الّتي ما زالت تُقاوم رغم الغُربة المستوطنة داخلها، وجذور الألم المتغلغلة بين حناياها.

★★★

أهدي روايتي هذه إلى سر وجودي وسندي الحقيقي بعد الله.. إلىٰ أبي.

إهداء خاص

إلىٰ تِلك الّتي لن يأتِي الزمان بمثلها ثانيًا، تِلك الّتي أفنت عُمرها لأجلي.. وحدها مَن كانت مُنقذتي مِن وسط مستنقعات انهياري، وداعمتي وسط أشواك الطريق وجَمر الظروف الّتي أواجهها، إلىٰ مَن لمست جُرحي بمحبتها وضمدته بحنانها.

إلىٰ مَن التهمت نيراني وأضمرتها بجوفها وجعلت لي مِن كتفها عُكازًا وخطت بي نحو درب الأمل مِن جديد، تلك الّتي أحالت مِن خريفي ربيعًا وجعلت مِن قحط أيامي زهرًا ومرّت علىٰ سنابلي مرور النسمة، تِلك الّتي تنتشلني دومًا مِن عِجاف الحُزن وتصنع لي مِن قلبها بُساطًا وتُحلق بي نحو سماء أحلامي.

إلىٰ أمي.. إهداء رابع أعمال صغيرتِك، لقد فعلتها لأجلِك.. لأجلِك فقط.

«المقدمة»

"الفقر منبع الجرائم"

مرحبًا عزيزي القارئ مِن داخِل جريمة اقترفها أحدهم بدوافِع غير معلومة، إنّني هُنا أخبِرك مِن علىٰ أطلال ما حدث ألوذ بالصمت الموجِع بين بُكاء وعويل أهالي الضحايا، لكِن انتظر لا تأخُذك مشاعرك نحو البحث عن القاتِل دون أنْ تقرأ المقولة الشهيرة لجبران خليل جبران "إنّ القتيل ليس بريئًا من جريمة القتل".

ابحث عن الأسباب أولًا واستجمع الخيوط المتروكة خلف كُلّ جريمة وارسم خريطة بأسماء مَن هُم محل شك داخِلك وانتظر قليلًا ثم ابحث عن القاتِل وجِده ولكَ كامِل الحُرية في مُعاقبته بطريقتك الخاصة...

"الفصل الأول"

يقول الإمبراطور فرديناند:

"ليأخذ العدل مجراه ولو سقطت السماء"

لذلك يسعىٰ كريم لإطلاق سراح الحقيقة المسجونة خلف جدران زنزانة مَن لا يعرفون للرحمة طريق.

" لم أكتُب لأنسىٰ البيت القديم، الأحلام الّتي تبخرت، الأماني الّتي حلقت في سماء اللا عودة.. فكلّ ليلةٍ أُعيد علىٰ مسامعي تِلك الكلمات الّتي حاولتُ جاهدًا محوها مِن داخل غُرف ذاكرتي.. كلّ يومٍ في مثلِ هذا الوقت؛ تحديدًا الساعة الثانية صباحًا تهبُ عاصفة ذكرياتي اللعينة، تنقض عليَّ أشباح الماضي ويركض داخلي الألم ركض الوحوش في البرّية، فأنا مُمزق.. أُشبِه الفريسة بين أسود ماضيَّ وذئاب حاضري، لم أشعرْ كهذه المرّة بالرعُب أمام حالي، إنَّها المرّة الأولىٰ الّتي يجرفني فيها هذا الشعور نحو العوم داخل أعماق الحقيقة المدفونة والحبيسة داخل جدران سجن هؤلاء الوحوش الّذين حللّوا ما حرمه الله وحَرموا نادرة مِن فلذة كبدها _ابنها_ "

كريم إدريس.. شاب في مُنتصف عِقده الثالث، متوسط الطول، ذو بشرة خمرية وعينين بُنيتين يصب بهما العسل صبًا أمام أشعة الشمس وشعر أسود قاتم، يسكن مع والدته في شارع فؤاد بوسط البلد، محامٍ يعمل بالقضاء وكاتب احتفظ بموهبته لنفسه فقط.

رائحة القهوة النفاذة الّتي تُنعِش قلبه تملأ أركان الغرفة المواجهة لهالة القمر، صوت المذياع وإذاعة القرآن الكريم يملأ البيت بأكمله، يجلس كريم وقد غلبه النُعاس، أمامه ملف القضية رقم ٥٠٧ أحوال شخصية ذو اللون

الأزرق، مدَّ يده لِيُمسك بالملف وفجأة ودون أيّ إنذار سابق هبَّت عاصفة مِن الجهة الشمالية أدت إلىٰ إغلاق النافذة مما أحدث صوتًا استيقظت علىٰ أثره والدة كريم لتخرج مِن الغُرفة وهي تتنقل ببطء شديد إلىٰ أن وصلت إلىٰ غُرفة كريم وقالت:

_كريم ...! لم تنَم بعد؟

التفت نحوها كريم وقال بصوتٍ مفتور:

_نعم يا أمي ما زلتُ مُستيقظًا.

نظرت إليه وقالت مازحة:

_وما الشيء الذي يُشغل بال سيادة المحامي الكبير...؟

نظر إليها ضاحكًا ثم قال:

_لا شيء لا تقلقي، إنها قضية جديدة يا أمي، لا أعلم لِمَ أهابها هكذا وكأنها أول قضية لي، ولكن الأمر غريب يا أمي (صمت قليلًا ثم تنهد وأكمل حديثه قائلًا)

هذه القضية بها ظلم، شيء مِن الغموض، حقيقة مسجونة خلف أساور لا أعلمها، حقيقة مخفية في غياهب الظلم، لكن خيوط الحقيقة مخفية ومعالم القضية مشوهة.

تنهدت الأم ثم قالت:

_ثِق دائمًا أنَّ دعواتي ملازمةً لكَ أينما حللّت، وأنا واثقة كلّ الثقة أنَّك ستحقق العدالة مهما كلفك الثمن.

علىٰ الجانب الآخر...

صوت صراخ طفل يدوي في المكان، الضجيج يعُم المنزل في الساعة الثانية والنصف صباحًا، الهواء يضرب النوافذ وصوت الأم يجلجل الغرفة قائلة:

_عمار.. عمار، استيقظ.

فرك عينيه وهو يتململ في فِراشه ثم قال وهو يتثاءب:

_ماذا بكِ يا زينة، ما الّذي حدث...؟

قالت بصوتٍ منزعج:

_رياض يبكي كثيرًا ولا أعلم ماذا أفعل له.

قال وهو يتثاءب أيضًا:

_أحضري له الحليب.. مِن المؤكد أنَّه جائع.

نظرت باستهزاء ثم قالت:

_تظن أنّني لم أفعل ذلك؟ فعلت وأحضرت له الحليب، ولكنه رافض أن يأخذ أيّ نوع مِن كلِّ هذه الأنواع الّتي اشتريتها له.

اعتدل في جِلسته ثم قال:

_وماذا سنفعل؟

قالت وهي تتردد في الحديث، صوتها يبدو عليه الخوف:

_لا يوجد سوىٰ حل واحد فقط...

رفع حاجبه الأيسر ثم قال وهو يقترب منها:

_وما هو...؟

قالت بخوف:

_نادرة.. نادرة الوحيدة الّتي تستطيع أن توقفه عن البكاء.

وما إن أكملت جُملتها إلا واستشاط غضبًا قائلًا وهو يلوح بإصبعه السبابة في وجهها:

_إياكِ وأن تنطقي اسمها مرَّةً أخرىٰ يا زينة.. إياكِ .

ابتلعت ريقها بصعوبة ثم استجمعت قواها قائلة:

_سيموت مِن كثرة البكاء، ليس لدينا حلٌ آخر.

رمقها بنظرة مُخيفة ثم قال:

_لو اضطر الأمر أن أقتله لكِ سأقتله يا زينة؛ كي لا يُذكر اسمها أمامي ثانيًا.

ثم أدار ظهره وذهب متوجهًا نحو الشُرفة الداخلية.

خرج ثم قام بإخراج لفافة تبغ مِن جيب بِنطاله وبدأ ينفث بعصبية مُفرطة ثم جلس علىٰ كرسيّ هزاز وألقىٰ برقبته علىٰ ظهر الكرسيّ ومد قدميه ليستريح ثم أغمض عينيه.

عودة للماضي....

_أستاذ عمار.. أعتذر مِنك ولكن مِن الواجب إخبارك بذلك.. أنا ليس لديَّ القدرة الكافية للتخلي عن ابني.

نظر لها وعيناه تشُع نارًا مِن شِدة الغضب وقال:

_ماذا تقولين؟ عيدي علىٰ مسمعي ما قولتيه مرَّةً أخرىٰ.

عادت إلىٰ الخلف لتلتصق بالحائط وابتلعت ريقها بصعوبة بالغة ثم قالت وهي تتنهد، صدرها يعلو ويهبط مِن شِدة التوتر:

_أ.. أنا لن أستطيع التخلي عن ولدي.

لف خُصلات شعرها الأسود المُجعد علىٰ يده ثم قال:

_سأعتبر نفسي لم أسمع هذه الكلمات؛ لأنني لو أخذت هذه الكلمات بعين الاعتبار ستكون هذه الكلمات هي كلماتك الأخيرة.

عودة للحاضر....

لا زال صوت الطفل يدوي في جميع أنحاء المنزل، صوت صراخه وبكائه الشديد أيقظ جميع مَن في المنزل، فقامت الجِدة سُعاد تتنقل ببطء علىٰ الكرسيّ المُتحرك الخاص بها إلىٰ أن وصلت إلىٰ غُرفة زينة.. طرقت الباب ببطء ثم قالت:

_زينة...! ابنتي يمكنني الدخول؟

وجهت زينة نظرها نحو الباب ثم قالت:

_بالطبع يُمكِنك الدخول يا جدتي.

مدّت يدها لتفتح الباب ببطء مما أحدث صوتًا مُزعجًا أدى إلىٰ إنصات الطفل له ثم دخلت وقالت:

_ماذا بكِ يا زينة، لِمَ تبكين؟

مسحت بيدها دموعها وقالت بصوتٍ مُنخفض وهي تهز رأسها نافية:

_لا شيء يا جدتي، لا تقلقي.

نظرت إليها الجِدة باستغراب ثم قالت:

ـلا تكذبين، إياكِ والكذب يا ابنتي فإن حبل الكذب قصير، احكِ لي ما حدث، سمعتُ صوت عمار عالي، أخبريني هل تشاجرتما؟

تنهدت زينة وقبل أن تبدأ حديثها انطلقت صرخات رياض الّتي بدأت تجلجل المنزل مِن جديد، نظرت إليه الجِدة ثم قالت:

ـاعطيني رياض ...

أعطته لها وهي تُسمي الله مما أحدث قشعريرة هزت بدن الجِدة كاملًا، يبدو أنَّ الرياح شديدة هذه الليلة أغلقت النافذة بِشدة.

أخذت الجِدة رياض وبدأت أن تلمس بيدها مُقدمة رأسه وهي تُتمتم ببعض الكلمات الّتي اعتاد علىٰ ترديدها كِبار السن، ثم التفتت نحو زينة الّتي ترتجف؛ خوفًا علىٰ ابنها وقالت:

ـهيا أكملي حديثك...

تنهدت وقالت:

ـعمار.. عمار يا جدتي عصبي عصبية مُفرطة الفترة الأخيرة لا أعلم ما سببها، لمجرد ذِكر اسم المُرضعة نادرة أمامه استشاط غضبًا ولكِ أن تتخيلي ماذا قال.

قالت وهي ترفع حاجبها الأيسر:

_ماذا قال؟

بدأت في البكاء وقالت:

_قال أنَّه لو كلفه الأمر أن يقتل ابنه؛ حتى لا يسمع اسم نادرة مرَّة أخرىٰ لفعلها.

شهقت بصوتٍ عالٍ ثم صمتت لبضع دقائق وقالت:

_رياض..! رياض نام يا جدتي، غرق في النوم هذا أمر عجيب!

ابتسمت الجِدة ثم قالت:

_الأطفال في هذا السن يحتاجون خبرة لتربيتهم يا عزيزتي وأنتِ لا زِلتِ صغيرة وهذا أول طفل لكِ مِن الطبيعي أن تكون خِبرتك غير كافية لتربيته.

هيا خُذِه وضعيه في سريره.

اقتربت زينة نحو جدتها وسمت الله وهي تَمد يدها نحو ابنها لتأخذه وفجأة شعرت وكأن رأسها حلبة لمصارعة الثيران مِن شِدة الصداع، ساد الظلام العالم مِن حولها وبدأت عدم الرؤية بوضوح، قالت الجدة:

_زينة...! زينة ابنتي ماذا بكِ؟

فركت عينيها ثم قالت:

_لا شيء يا جدتي شعرت بدوار بسيط، هيا اعطيني رياض واذهبي لتأخذي دوائِك.

أخذت رياض وهي تشعر بتشنج في عضلات ساقها وألم شديد برأسها ووضعته في سريره ثم جلست علىٰ سريرها وهي تمسك رأسها بيدها وقالت:

_ماذا حدث لي؟

ثم رفعت بصرها نحو ضوء القمر الذي يُرخي ضوءً خفيفًا علىٰ شرفة الغُرفة وصوت البرق يضرب في كلِّ مكان، وفجأة أيقظ شرودها صوتًا غريبًا ثم حدقت بعينيها إثر ما رأته أمامها.

"الفصل الثاني"

يقول مونتسكيو:

"القانون يجب أن يكون مثل الموت الّذي لا يستثني أحد"

هكذا فعل كريم أمام قضية مقتل أحد أهم الأطباء في الدولة، ولكِن هل ينتهي بِه المطاف إلىٰ هذا الحد، أم للحقيقة خيوط مفقودة لم يتم الحصول عليها بعد...؟

التاسعة صباحًا في محكمة شمال القاهرة، قضية ٧٠١ جنايات القاهرة.

_محكمة...

قضية رقم ٧٠١ جنايات القاهرة، الدفاع يتفضل بالصعود إلىٰ المنصة.

قام كريم وهو يرتدي روب المُحاماة الأسود اللامع وبيده ملف القضية، تنهد كريم ثم قال:

_سيدي الرئيس، أنا كريم إدريس محامي الدفاع عن المتهم "سيد الأسيوطي" ممرض المجني عليه في نظر سيادتكم الطبيب "حسام السفطي".

هز القاضي رأسه ثم قال وهو يُشير بيده:

_تفضل...

تنهد وأغمض عينيه لبرهة ثم قال وهو يرفع ذراعيه:

_سيدي.. سأبدأ بتقرير الطب الشرعي وهو جاء كالتالي...

" بعد أخذ عينة قدرها خمسة عشر ملل مِن دم المجني عليه ومحتويات معدته بأخذ المعدة كاملةً محكمة القفل مِن طرفها العلوي جهة المريء والسفلي جهة الاثنىٰ عشر وجدوا أقراصًا عالقة في الغشاء المُخاطي للمعدة.

وجاء أيضًا في التقرير أنَّ الوفاة تمت في الساعة الثامنة مساءً واكتشاف موت الطبيب حسام كان في حدود الساعة الثانية والنصف صباحًا بعد إطلاع الطبيب الشرعيّ علىٰ حرارة المجني عليه تَبّين أنَّ حرارته هبطت مِن حوالي ست إلىٰ سبع درجات مما أكد أنَّ موت الطبيب حسام كان في حدود الساعة السابعة أو الثامنة مساءً وفي هذا الوقت تحديدًا كان المُتهم قد وصل إلىٰ صعيد مِصر.. تحديدًا مركز طما مُحافظة سوهاج حيث تسكن عائلة زوجته (وأشار بيده نحو ملف القضية وهو يقول) مُرفق أمام سيادتكم تذكرة القِطار الّذي سافر بواسطته المُتهم وموعد الرحلة تحديدًا مما ينفي عن موكلي أيَّة اتهامات موجهة إليه.

لم يُكمل كريم حديثه بالأدلة الموجودة الّتي تنفي التُهمة الموجة إلىٰ موكله سيد الأسيوطي الّذي كان يعمل ممرضًا في عيادة الطبيب حسام حيث قام محامي المجني عليه بالحديث بطريقةٍ هوجاء أمام كريم الذي كان مُحافِظًا علىٰ ثباتهِ الانفعالي في الدفاع عن المُتهم وقال:

_أعترض سيادتكم...

هذا التقرير غير كاملًا.

نظر إليه كريم ثم قال:

مذكور أيضًا في التقرير الطبي أنَّ الأقراص الّتي وُجِدت عالقة في جدار معدة المجني عليه كانت أقراص للربو؛ المرض الذي كان يُعاني مِنه المجني عليه مُنذ طفولته تقريبًا، ولا يوجد سِوىٰ تفسيرين لهذا؛ إما أن يكون المجني عليه تناول هذه الأقراص بغرض الانتحار أو أنَّ الطبيب ـرحمة الله عليهـ كان لديه مُشكلة طبية في المعدة والهضم أدت لتراكم هذه الأقراص في جدار المعدة مما تسبب في وفاة السيد حسام السفطي.

هزَ القاضي رأسه مُقتنعًا بعض الشيء بكلام كريم ، ولكن مِن الواجب سماع محامي المجني عليه أيضًا فسمح له بالصعود إلىٰ المنصة وبدأ قائلًا:

ـجابر رمزي محامي المجني عليه.

سيدي الرئيس.. إنَّ الأدلة الّتي ذكرها زميلي الأستاذ كريم إدريس لا تنفي أو تستبعِد الشُبهة عن المتهم أبدًا، فالمتهم كان أقرب فردًا للمجني عليه وقبل وفاة المجني عليه بحوالي شهر تقريبًا بدأت الخلافات بين المجني عليه والمُتهم، وحدث شِجار بينهما أكثر مِن مرَّة أمام المرضىٰ مما أدى إلىٰ ضرب المجني عليه المُتهم أمام الجميع، فقام المُتهم بالمطالبة بجميع حقوقه المادية مِن المجني عليه؛

كي يترك العيادة وانتهىٰ الأمر باتفاق المجني عليه مع المُتهم أن يستمر في العمل إلىٰ آخر الشهر؛ كي يحصل علىٰ جميع مُستحقاته كاملة خِلاف ذلك لن يأخذ قِرشًا واحِدًا مِن المجني عليه، ولكن يا سيدي المُتهم كتم الضغينة والحِقد بداخِله حتىٰ سنحت له الفرصة بأن ينتقم مِن المجني عليه بعد إهانته أمام الجميع وقام بتبديل أقراص الربو بأقراص أخرىٰ مُنتهية المفعول أو قد تكون أقراصًا أخرىٰ لا تمت لعلاج الربو بأيّ صِلة.

نظر إليه القاضي باندهاش ثم قال:

ـ ولكن تقرير الطب الشرعي أثبت أنَّ المجني عليه تُوفي أثر جرعة زائدة مِن أقراص الربو ولم يتم استبدالها بأيَّة حبوب أخرىٰ.

ابتلع ريقه وأخذ يتحسس وجهه ثم قال:

ـأنا أطعن في ذلك وأطلب مِن سيادتكم إعادة تشخيص الطب الشرعي للأقراص الّتي وجِدت بمعدة المجني عليه مرَّة أخرىٰ.

انتهت المواجهة بين كريم محامي المُتهم وجابر محامي الطبيب حسام وانتظروا الحكم بعد سماع جملة "الحُكم بعد المداولة"

بعد مرور حوالي نصف ساعة جاء الخبر الّذي ينتظره كريم .. فهو يعلم جيّدًا أنَّ المُتهم سيد بريء براءة الذئب مِن دمِ ابن يعقوب، فكيف لمُمَرِض يأخذ قروشًا؛ كي يُنفق علىٰ أُسرة مكونة مِن خمسة أولاد ووالدتهم أن يقتل إنسانًا ويؤدي بنفسه إلىٰ الهلاك وهو مُعلقٌ في رقبته كوم مِن اللحم كما يُقال في الأمثال الشعبية، هذه هي الحياة حقًا ليست عادلة طبقات الأغنياء تتنعم والفقراء يُتهمون بالقتل ويُجبرون علىٰ تحملِ أعباءً فوق أعبائهم.

دعنا مِن كلِّ هذا عزيزي القارئ لنُكمِل ما حدث، دخل القاضي وجلس علىٰ مِقعده ثم قال:

ـبعد الاطلاع علىٰ الأوراق المُقدمة وتقرير الطب الشرعي قررنا نحنُ هيئة المحكمة براءة المُتهم "سيد حسنين محمد الأسيوطي" الشهير بـ "سيد الأسيوطي".

رُفعت الجلسة...

وما هي إلا لحظات مِن نُطق القاضي بالبراءة حتىٰ اشتعلت المحكمة بالزغاريد والتهليل والتكبير، فهذا متوقع طالما أنَّ هذه القضية كانت بيد كريم إدريس فالنجاح هو حليفها.

بعد الانتهاء مِن المُباركات والتهاني لم يلفت نظر كريم سِوىٰ نظرة السيدة "سهام القاضي" زوجة المجني عليه فقد نظرت إلىٰ كريم نظرة لم يفهمها أهي عِتاب مشوب بالألم أم أنّها نظرة انكسار، هو لا يعلم ماذا تعني هذه النظرة الغريبة الّتي لفتت انتباهه مِن خلف تِلك النظارة البُنية الّتي كانت ترتديها.

علىٰ الجانب الآخر...

الروائح الكريهة تنبعثُ مِن كلِّ مكان، تِلك المياه العفنة الّتي غرقَت الأرض وأحدثت بُحيرات عميقة علىٰ أرض أحد الأحياء الشعبية ووسط العشوائيات؛ إنَّه بيت "نادرة" أو لنبقىٰ صادقين أكثر إنه يُشبه أحد أكشاك السجائر المبنية بالخشب، أمامه مصطبة مكونة مِن درجتين باليتين، صوت الضجيج المُزعج المُنبعث دومًا مِن هذا البيت لا أحد يعلم مصدره، فكيف لهذه القطعة المُتعفنة المُنعوتة بالمنزل أن تُحدِث كُلّ هذه الضوضاء بالمنطقة؟! أعشاش العنكبوت الّتي كادت أن تدفن المنزل بين خيوطها والغبار الّذي غطىٰ معالم البيت مِن الخارج.. كلّ هذا كان مصدرًا لكثير مِن الأسئلة الّتي ستظل بِلا إجابة وتُهلِك أذهان السُكان مِن حولهم، المرأة ذات الدقة الخضراء علىٰ ذقنها والشال الأسود المُلتف حول رأسها دومًا وابنتها تِلك الّتي أعمىٰ الكُحل ملامح عيناها فحينما تنظر إليها لن تستطيع تمييز بؤبؤ عينيها الأسود

مِن تِلك الحدقة البيضاء الّتي استحال لونها إلىٰ البُني مما جعل جميع مَن يراها يخاف مِنها دون أيَّة أسباب، ملامحها تِلك الّتي تزرع الريبة في قلوب كُلّ مَن يراها ما عدا ذاك الّذي أُغرِم بها ولَمْ يَعُد يتصور حياته بدونها.. فقد أحبها وشغفه بها جعله لا يعلم ماذا يفعل بزوجها ذاك عديم الفائدة في نظر الجميع الّذي جعلها تخرج لخدمة هذا وذاك مِن أجلِ أن تأتي له بثمن رغيف الخُبز وعُلبة التبغ الّتي يسهر علىٰ حرقها طول ليله بِجانب أكواب الشاي والقهوة والنرجيلة الزجاجية الّتي يُحدِث صوت قرقرتها إزعاجًا لجميع مَن بالمنطقة، إنَّها نادرة ومَن سواها أثار جدل المنطقة بهيئتها الغريبة وتصرفاتها الأغرب وصوتها الذي يُشبه صوت الرجال.. إنَّه يخرج بحشرجة تُشبه حشرجة الرجال حقًا، تجلس أمام أمها تضع رأسها بين قدميها الممدودتين علىٰ الأرض أمامها وهي تتحسس شعرها الخشن المجعد بيدها لتُحدِث لها تدليكًا يُشعِرها ببعض الراحة بعد عناء طويل ويوم جعل قدماها كادت أن تتقطع مِن كثرة السير مِن بيت هذا لبيت ذاك؛ كي تُرضع لهم أولادهم وتأخذ ثمن ما تفعله لتعود بِه إلىٰ زوجها عديم الفائدة وأمها المريضة.

☆☆☆

ما زالت تِلك الرجفة الّتي شعرت بها زينة ليلة أمس عندما دخل عليها عمار فجأة وبيده سكينًا جعلتها تشك لوهلة أنّه سيقتل ابنها قبل أن ترىٰ تِلك التُفاحة الخضراء في يده اليُسرىٰ لا تستطيع نسيانها، فهي ليست مطمئنة، مشاعر الأمومة قد سيطرت عليها وهواجس الخوف كادت أن تُفتك برأسها، تِلك المُهدئات الّتي تعودت علىٰ أخذها لم تفعل شيئًا ولم تُهدِأ مِن روعها مِثقال ذرة "فكيف لامرأة زوجها عمار أن تعيش مُستقرة؟ نحن نُحب عندما نطمئن ونشعر بالأمان.. أما أنا فلم أشعر بالأمان بجانب عمار قط.. وأكاد أكون لم أشعر به طوال حياتي منذ أن ولِدت.. فكلّ الّذين أحببتهم تركوني ولم يلتفتوا وجعلوا الخوف فقط يأكل في جسدي كالذئاب".

هكذا حدثت نفسها وهي تقف في شُرفة غُرفتها المُطلة علىٰ نافِذة غُرفة الجِدة سُعاد الموجودة نهاية الطُرقة الكبيرة، تِلك الغُرفة الّتي اعتادت أن تُنيرها دومًا بضوء الشموع، فهي منذُ خمسون عامًا لم تُدخِل غُرفتها مصباحًا، فقد قررت ألا ترىٰ نورًا في حياتها بعد موت زوجها الّذي توفىٰ بعد زواجهما بثلاثة أشهر فقط، قرَّرت أنْ تعيش في الظلام الّذي تركه لها شريك حياتها إلىٰ أنْ تلقاه.

أغمضت عيناها وراحت تستنشق هواءً نقيًا ساعة الفجر الّتي وصفوا هوائها بأنّه خالٍ مِن أنفاس المُنافقين، هكذا استغلت نوم زوجها عمار لتستطيع أنْ

تأخذ نفسًا عميقًا رُبّما يبث داخلها الأمان مِن جديد، ولكن لم تستطعْ أن تأخذ نفسها بالشكل الّتي تحتاجه فقد سمعت أصواتًا غريبة آتيه مِن غُرفة الجِدة سُعاد أدىٰ ذلك لجعلها ترتجف أكثر مِن ارتجافها ليلة أمس.

"الفصل الثالث"

العدالة هي الشيء الوحيد الّذي يسعىٰ كريم لتحريره مِن أسر قيود الظلمة.

الساعة الثالثة صباحًا كانت دهشتهم كبيرة حينما التهمت النار جميع ما في الغُرفة إلا ذاك الكُرسِيّ الفِضيّ الموجود بجانب المدفئة بِغُرفة الجِدة سُعاد، كان صوت ضجيج المنزل أيقظ جميع سُكان المنطقة، صوت صراخ "رياض" الّذي أثار جدل الجميع، لقد كان إنقاذ الجِدة سُعاد أحد المُعجزات الّتي حدثت في القرن الحادي والعشرين، فجميع ما كان موجودًا بالغُرفة احترق وأصبح رمادًا إلا ذاك الكُرسِيّ الفضيّ الّذي كانت تجلس عليه الجِدة.

عودة للماضي...

أحست زينة وكأن صوتها استُأصِل لم تستطعْ النطق ولو بكلمة واحدة، كُلّ ما فعلته أنّها حدقت بعينيها وتسمرت في مكانها ولم تستطع الحِراك، تشنجت أطرافها وشُلت حركة قدماها وتجمد الدم في عروقها وعِندما استجمعت بعض مِن قواها سارت علىٰ الأرض كأنها تسير علىٰ شوكٍ مبدور علىٰ أرضية الغُرفة، سارت ببطء شديد وهي تنقل قدمًا تِلو الأخرىٰ بخطواتٍ مُتثاقِلة حتىٰ وصلت إلىٰ غُرفة الجِدة سُعاد، وجدت أصواتًا غريبة تنبعث مِن الغُرفة، أصوات كركبة وتهيأ لها كأن هناك أشباحًا تسير داخل الغُرفة، ابتلعت ريقها بصعوبة بالغة ومِن ثُم قالت بصوتٍ مُنخفض يرتجف وأسنانها تتخبط:

_جـ.. جد... جدتي!

فلم تلقَ أية إجابة، وضعت يدها الّتي كانت ترتجف رُعبًا علىٰ مِقبض الباب وما إنْ فتحت حتىٰ حدث صوت كصوتِ انفجار القنابل أودىٰ بها إلىٰ نهاية الطُرقة الموجودة بها الغُرفة وخرجت النار مِن الغُرفة وتسللت إلىٰ الستائر البيضاء المُنسدلة بجانب الغُرفة.

فقدت زينة وعيها وما هي إلا دقائق حتىٰ امتلأ جو البيت برائحة الدُخان المُنبعِثة مِن غُرفة الجِدة.

عودة للحاضر....

تنهد عمار وأغلق عينيه حمدًا لله علىٰ سلامة جِدته، تِلك الّتي لا يعرف لِمَ يُحبها ألأنّها آخر نسل عائلة "البحيري" الشريف أم أنّه يُحبها لأجل تِلك الأموال الّتي سجلتها بـاسمهِ في البنوك داخِل وخارِج مِصر؟!

استعادت زينة وعيها وكان وجهها شاحب.. أصفر اللون، ظلت تحدق بالغُرفة يمينًا ويسارًا تبحث بنظرها عن ولدها رياض، ظلت تُحاول أن تنطق فترة طويلة، لكِن انتهىٰ الأمر بإخبار الطبيب لهم قائِلًا:

_للأسف يا سيد عمار، السيدة زينة لن تستطيع التَحدُث ثانيًا، يبدو أنَّها تلقت صدمة شديدة.

نظر له عمار بطرف عينه ثم قال:

_أليس هناك حلًا لهذا؟

هز الطبيب رأسه نافيًا وهو يقول:

_للأسف حاليًا لا توجد أيّة حلول، ولكن رُبّما مع الوقت تتحسن (مَدَ يده نحو عمار وأكمل وهو يتنهد)

هذا الدواء مُهم جدًّا لَكِن أعتقد أنَّه غير موجود بِمصر حاليًا ستضطر لإرسال أحد يأتي بِه مِن الخارج.

لم ينطق عمار واكتفىٰ بِهز رأسه مُوافِقًا علىٰ ما سمعه مِن الطبيب.

خرج جميع مَن بالغُرفة وتركوها وحيدة كوحدتها دائمًا مُنذ صِغرها وذهبوا للاطمئنان علىٰ الجِدة سُعاد الّتي نَجَت بأعجوبة.

☆☆☆

علىٰ الجانِب الآخر

" كيف الحال؟ لستُ مُشتاقًا لشيء سِوى تحقيق العدالة وإبادة الظُلم، لستُ مُشتاقًا لهدوئي الداخلي وسلامي النفسي، لستُ مُشتاقًا لروحي الّتي تركتها بين قصائدي مُنذ زمن بعيد بقدر اشتياقي لإزالة جذور الظُلم ونفث غباره الّذي يُغطي صناديق الحقيقة المُخبأة داخِل زنازين مَن أفقد نادرة الإحساس بشعور الأمومة وأخذ مِنها ابنها رغمًا عنها، إن كان حُلمي ينحصر بتحقيق أمنية واحدة أعتقد حتمًا أنّني سأكتفي برد ابنها إليها مرّة أخرىٰ، ولكِن كيف وأنا تعيس أجلس في غُرفتي بين رسائل الماضي الّتي أخبرت فيها العالم أنّني سأُبيد الظلم وأمحي القهر اللذان شعرت بهما وتعرضت لهما في صغري عن الجميع، ولكِن عجزت.. عجزت عن إزالة كُلّ ما تعهدتُ لنفسي أن أزيله، لا زِلتُ أتعرض للظُلم ولم أستطع الدفاع عن المظلومين"

~~كريم~~

هكذا خطت أنامل كريم في دفترهِ قبل أن يمسك بالملف الأزرق قضية رقم ٥٠٧ أحوال شخصية.

فتح الملف ببطء وهو يتنهد تنهيدة ألم أو ربّما يأس مِن نجاح هذه القضية؛ فجميع تقارير الـ **DNA** نفت أنَّ لنادرة حق بأن تتقدم ببلاغ لتُعيد ابنها إلىٰ حضانتها مرَّة أخرىٰ، هو أيضًا لا يعلم إن كانت نادرة تقول الحقيقة أم أنَّها تُريد بعض الأموال وترسم خِطة لتحظىٰ بِهم وتسد جوع زوجها ووالدتها، كُلّ هذا لا يعلمه هو فقط صدق دموعها الحارة الّتي سقطت أمامه على المكتب ذاك اليوم.

عودة للماضي....

يونيو عام ألفين وعشرون، تحديدًا الساعة السابعة مساء يوم الأحد سمع ضجيج خارج مكتبه وصوت نحيب امرأة كاد صوتها أن يختلع قلبه مِن مكانه، خرج بسرعة البرق ليرىٰ ماذا يحدث في الخارج، فتح الباب بسرعة وجد امرأة ترتدي عباءة سوداء مردومة بغبار الأرض، تلف رأسها بشال أسود تُمسِك بقدم العامل حتىٰ كادت أن تُقبلها، تبكي وتشهق.. كاد يسمع شهيقها الأصم، نطق بسرعة قائلًا:

_ما الّذي يحدث هنا..؟

نظر إليه العامل ثم قال:

_أستاذ جمال أمرني بألا أستقبلها، شكلها مُريب رُبّما تُريد السرقة وتتخفىٰ وراء دموعها.

نظر إليه كريم نظرة غضب ثم قال:

_اتركها...

تلجلج في النطق وقال:

_ولكِن يا أستاذ، السيد جمال...

وقبل أن يُكمِل حديثه مَدَ كريم يده وساعدها؛ كي تقف علىٰ قدمها وقال:

_قُلت لكَ اتركها.

أخذها إلىٰ مكتبه وأجلسها علىٰ الكُرسيّ الّذي أمامه وأعطاها كوبًا مِن الماء ومِن ثم بدأ حديثه قائِلًا:

_أخبريني ماذا تريدين؟

نطقت في لهفة قائلة:

_ولدي.. أخذوا مني ولدي يا سيد.

اقشعر بدنه بمجرد أنْ نطقت نادرة كلامها ثم قال:

_اهدأي قليلًا وأخبريني كيف يمكنني مساعدتك؟

تنهدت ومِن ثم بدأت تسرد عليه قِصتها ومِن هُنا تعهد لها كريم بالمساعدة وتعهد بالتهديد والوعيد لِمَن حرمها مِن رؤية ابنها.

عودة للحاضر....

بعد ساعات مِن التفكير المتواصل أغلق كريم ملف القضية رقم ٥٠٧ وقررَّ أنْ يذهب للنوم؛ حتىٰ يستطيع أنْ يستيقظ مُبكرًا في مَوعِد جلسته.

☆☆☆

أصوات الديكة بدأت في التعالي، أصوات المارة وعجيج الرياح الّتي تهبط مِن جهة الشمال، أصوات أقاويل النسوة المُتوارثة عن الشؤم والشر والخير وغيرهم تملأ المكان، بيت نادرة الشبيه بأحد أكشاك السجائر والعنكبوت المُقبل علىٰ التهام المنزل بين خيوطه يقف بِمفره في الجهة الشمالية للحيّ، دخول النسوة وخروجهن المُتردد علىٰ بيت نادرة.. تِلك القطعة المُتعفنة الّتي لا تسع شخصًا واحد بِداخلها كيف لها أنْ تحمل كُلّ هؤلاء النِسوة اللّاتي يدخلن ويخرجن..؟!

استيقظت نادرة الساعة الثامنة صباحًا علىٰ صوت طرقات الباب، قامت وهي تفرك عينيها تِلك الّتي كادت ألا تُبصِر بهما قبل أن تغسلهما، وشعرها المُجعد القصير الّذي يظل واقفًا طوال الوقت ولا تتذكر متىٰ آخر مرَّة مشطته، لفت الشال الأسود البالي الّذي أوشك علىٰ الصراخ في وجهها؛ كي ترحمه مِن كثرة الارتداء، توجهت نادرة نحو الباب لترىٰ مَن الطارق، فتحت الباب ببطء فـتسلل شعاع الشمس إلىٰ الداخِل مِما جعل والدتها تستيقظ هي الأخرىٰ لا تقل هيئتها بشاعة عن بشاعة هيئة ابنتها نادرة، قامت تهرش شعرها بِشِدة كادت أن تفتك برأسها مِن شِدة الهرش.

فركت عينها ثم نظرت بِطرف عينيها اليُسرىٰ وعيناها اليُمنىٰ كانت مُغلقة، ثم أخرجت صوتها المُتحشرِج وهي تتنحنح قائِلة:

ـمرحبًا يا ابنتي..

أدخليها يا نادرة.

وطئت قدماها علىٰ أرضية المنزل الغير معرفة أهي أرضية طينية مِن كثرة المشي عليها تصلبت أم هي أرضية خرسانية تفتت بمرور الزمن، وتِلك الإضاءة الخافتة الّتي كادت أن تعميهم فـجعلت مِن أم نادرة أن ترتدي نظارة مُستديرة سميكة العدسات لتُداري بها جحوظ عينيها المُخيف.

جلست المرأة علىٰ الأريكة الخشبية المُبللة إثر رطوبة الأرض ومِن ثُم قالت:

ـمرحبًا يا "سِتنا" جئتُ لكِ بأثر زوجي كما طلبتي.

مَدت يدها نحو يَد والدة نادرة الموشوم عليها وشم أخضر يُشبِه العقرب وهي ترتجف.

أخذت والدة نادرة مِنها ما كان بيدها ثم أمرت نادرة بأن تُعِد لهما كوبين مِن الشاي بالنعناع.

"الفصل الرابع"

دائمًا ما يكُون هُناك مُعتقدات غريبة داخِل كُلّ بيت، فهل يا تُرا مُعتقدات الجِدة سُعاد هي مُجرد مُعتقدات لامرأة مُقبلة علىٰ الستين مِن عُمرِها، أم خلف هذه المُعتقدات خيوطًا مخفية...؟

واحد يناير ٢٠٢١...

اصطدم بالأريكة فجلس عليها وبيده زجاجة النبيذ، جلس في الظلام الدامس يُحرك قدميه بعدما استلقى بجسده علىٰ الأريكة فشعر بشيء يتحرك تحت قدمه، مَدَ يَده يتحسس الشيء الّذي يتحرك تحت قدمه، تجمد الدم في أطرافه لوهلة ومِن ثم استجمع قواه وتمعن وفحصها فوجدها إحدىٰ شموع غُرفة الجِدة سُعاد الّتي تمتاز برائحتها النفاذة، قربها مِن أنفه؛ كي يشم رائحتها فتقلص وجهه اشمئزازًا مِن تِلك الرائحة المُنبعثة مِن الشمعة، نظر إليها أكثر ثم قال بصوتٍ مفتور:

_شمعة! ما الّذي أتىٰ بِها إلىٰ هُنا..؟

ألقىٰ بها مِن نافِذة غُرفته ولم يُعرها أيّ اهتمام وراح غارقًا بين كؤوس النبيذ الّتي يتناولها.

بعد مرور ما يُقارب النصف ساعة أُحيل الهدوء الّذي كان يتمتع بِه عمار إلىٰ ضجيج كاد أنْ يجعله يشق رأسه نصفين أثر بكاء رياض الّذي ملأ البيت وهز جدران الغُرفة.

انتفضت زينة مِن سريرها تتسكع علىٰ الجدران إلىٰ أنْ وصلت إلىٰ سرير رياض، التهمته بين يدها بسرعة البرق وراحت تُحركه يمينًا ويسارًا والدموع تسيل علىٰ وجنتيها الحمراوين كبتلات الورد.. كانت عاجزة عن النطق لم تستطعْ فِعل شيء لتمنع رياض مِن البُكاء.

انقلب المنزل رأسًا علىٰ عَقِب، فاق كُلّ مَن كان نائمًا وإلىٰ الآن لم يكُف رياض عن البُكاء حتىٰ ذهبت بِه إلىٰ غُرفة الجِدة سُعاد الّتي رفضت أنْ تتركها وأصرت علىٰ الجلوس بداخِلها حتىٰ وهي شِبه رماد بالي، كانت تجلس علىٰ ذاك الكُرسيّ الفِضيّ بِجانب المدفئة الموجود أعلاها ذاك الصندوق المصنوع مِن الخزف الّتي ملأته بأجود أنواع البخور وأغلاها ثمنًا، جمعتها مِن خارج مِصر وداخِلها، فقط هذه الأشياء الّتي عجزت النيران عن التهامها.

دقت الباب فلم تُجِب الجِدة، واصلت الدق في عِناد وصوت رياض ما زال يدوي بالمنزل ويزلزل جدرانه، لم تشعُر إلا حينما فتحت الجِدة سُعاد الباب فجأة وفوجئت بهيئتها الغريبة أو رُبّما أصبحت مُعتادة لهم فهي كلِّ ليلة ترتدي عباءة بيضاء وشال أبيض أيضًا لتنام بهم، رفضت أن ترتدي أيّ لونًا آخر سِوىٰ الأبيض مما أثار بداخلهم الكثير مِن التساؤلات عن سبب ارتدائها ولم

يحصُل أيّ مِنهم علىٰ الإجابة، انتفضت زينة أثر فتحها المُفاجئ للباب، ابتسمت الجِدة وضاقت عيناها ثم قالت:

_ابنتي زينة! لِمَ أنتِ هُنا في هذا الوقت المُتأخر؟

نظرت إليها زينة وترقرقت الدموع في مُقلتيها فواصلت الجِدة حديثها قائلة:

_آه! نسيت، معذرة يا ابنتي لقد نسيت أنَّكِ لن تستطيعِي الحديث في الوقت الحالي (ثم أشارت بيدها لخارج الغُرفة وواصلت حديثها قائلة)

لنُكمِل باقي الحديث في غُرفتِك، هنا الغُرفة ليست صالحة للحديث، رائحة الدُخان في كُلِّ مكان أخشىٰ عليكِ وعلىٰ رياض مِن التعب.

سارت زينة ببطء وخلفها الجِدة سُعاد الّتي تتحكم بكرسيها المُتحرك مِن خِلال البطارية الموجودة بجانب يدها اليُمنىٰ إلىٰ أنْ وصلوا إلىٰ غُرفة زينة.

تنهدت الجِدة ثُم قالت:

_اعطيني إياه...

مدت يدها وأعطتها رياض، تمتمت كالمُعتاد بكلماتٍ لم تستطع زينة سماعها حتىٰ راح غارقًا في النوم.

نظرت الجِدة إلىٰ زينة ثم قالت:

_الصغير يبدو أنّه محسودًا، ما رأيك يا ابنتي في زار..؟

اعتلت ملامح وجه زينة الدهشة ومِن ثم حركت رأسها في عدم فِهم فأكملت الجِدة قائلة:

_أعلم أنَّكِ اندهشتِ، رُبّما في داخِلك تقولين أنني امرأة مِن العصور الحجرية أؤمِن بالخرافات بحكم سني، لكن لِمَ لا نجرب رُبّما نحصل علىٰ نتيجة إيجابية.

هزت زينة رأسها موافقة، فقالت الجِدة:

_ غدًا سأتحدث مع نعمة _خادمة المنزل_ هي تعرف أُناسًا يفهمون في مِثل هذه الأمور.

(تنهدت ثم أكملت) هيا خُذِه وضعيه في سريره لن يفيق إلا في الصباح لا تقلقي.. وأنا سأذهب للنوم.

أدارت وجهها إلىٰ خارج الغُرفة وقالت قبل أنْ تخرج:

_وأنتِ أيضًا اذهبي إلىٰ سريرك؛ كي تستطيعي الاستيقاظ مبكرًا لدينا الكثير مِن الأعمال.

خرجت الجِدة سُعاد متوجهة إلىٰ حديقة المنزل، لم تذهب إلىٰ غُرفتها كما قالت، بل ذهبت إلىٰ الحديقة لتستنشق هواءً نقيًا وأثناء سيرها بواسطة الكُرسيّ المُتحرِك خلف المنزل وجدت تِلك الشمعة الّتي ألقاها عمار مِن نافذة غُرفته، اعتلت ملامحها علامات الغضب ومِن ثم حاولت أن تمسك بها وتلتقطها مِن الأرض وبصعوبة بالغة استطاعت أن تمسك بالشمعة بين يديها ثم ألقط بنظرها نحو نافذة غُرفة عمار وقالت في يأس:

ـيبدو أنّ النبيذ والسهر أفقدوك عقلك، ليرحمك الإله مِن شر نفسك وعواقِب أفعالك.

ومِن ثم توجهت إلىٰ المنزل؛ كي تعود إلىٰ غُرفتها مرّة أخرىٰ.

علىٰ الجانِب الآخر....

استيقظ كريم لصلاة الفجر، ذهب ليتوضأ ومِن ثُم صلىٰ الفجر وبعد انتهائه مِن الصلاة اتجه يمينًا حيث توجد النافذة المُطلة علىٰ الشارع، فتح نافذتهم المُطلة علىٰ الشارع والّتي تُقابِل نافِذة إحدىٰ جيرانهم الّتي تعيش في منزلها مع ابنتها ذات الثانية وعشرون عامًا والّتي تُدعىٰ "أمل" تِلك الّتي لم يُعرها كريم أيّ اهتمام منذ صغرهم ولم يلفت نظره تِلك المساحيق الّتي تُزين بها وجهها

باستمرار، فقد تربىٰ في بيت مُحافظ ولم تَكُن للعواطِف مجال في مِثلِ هذا الجو المُحافِظ الّذي عاش فيه، فتح النافِذة فاصطدمت بوجهه تِلك النسمة الهادئة الّتي بعثت بداخِلهِ الأمل مِن جديد.. ابتسم وقد كان لا يبتسم إلا نادرًا في حياته، دائمًا ما كان حبيسًا لغُرفته وأوراقه ورسائله الّتي كتبها وأخفاها حتىٰ عن أقرب الناس إليه، دائمًا ما كان مُكتفٍ بذاته فقط لا يُعير أيّ اهتمام لأيّ شيء حوله، رُبّما هذا نتيجة لتِلك العصبية المُفرطة الّتي كان يتمتع بها في صغرهِ أو رُبّما لأسباب أخرىٰ دفنها بين طيات رسائله، فهذا شيء طبيعي لشخصية اتسمت بالكتمان والعِناد الشديد، اتسمت بالغموض الّذي أثار أسئلة البعض، مِن أين أتىٰ بهذا الهدوء الّذي يُشبه إلىٰ حدٍ ما اللامُبالاة؟ وكيف استطاع أن يُخفي شخصيته الحقيقية عن الجميع، الغموض المُجتاح شخصيته شيء مُثير للغاية، كيف له ألا يفهمه أحد بهذه الطريقة؟ فهو مثل الليل، يُشبه الليل كثيرًا في هدوئه، لكِنه برغم ظاهرهِ الهادئ إلا أنَّ هناك غموض بين ثناياه لا أحد يستطيع أن يفك شفراته سواه.

كلماته ومبادئه الخاصة، ثقته المُفرطة في ذاته، رفعة حاجبِهِ الأيسر أثناء حديثه وعالمه الّذي صنعه له وحده بعيدًا عن ترهات العالم.. كلّ هذا أطفى علىٰ شخصيته حضورًا مميزًا وجذاب أو ما يُعرف بـ "الكاريزما".

كانت الساعة الثامِنة وثلاث عشرة دقيقة عِندما خرج كريم مِن المنزل وركب سيارة الأجرة مُتجهًا إلىٰ المحكمة.

☆☆☆

دقت الساعة العاشِرة صباحًا، امتلأ البيت بالضجيج والعجيج، استيقظت الجِدة سُعاد واستدعت "نعمة" خادمة المنزل، دقت الباب برفق؛ كي لا تُزعِج الجِدة، سمحت لها الجِدة بالدخول فوقفت مطأطأة الرأس قائلة:

_أمرك يا جدتي.

تنهدت الجِدة ثم قالت:

_تعرفين أنَّ رياض يبكي بكثرة كلّ ليلة.

هزت رأسها مؤكدة علىٰ حديثها فأكملت الجِدة حديثها قائلة:

_اقترحت علىٰ زينة ليلة أمس أن نأتي بسيدة تفهم في أمور الزار رُبّما الصغير رأىٰ شيئًا أخافه، نأخذ بالأسباب.

هزت نعمة رأسها قائلة:

_معِك حق يا جدتي، رُبّما حدث ذلك ولم تنتبه السيدة زينة.

ابتسمت الجِدة ابتسامة خفيفة وقالت:

_إذن سأعطيكِ عنوان سيدة تفهم في مِثل هذه الأمور اذهبي إليها وأخبريها أنَّي بحاجة لها اليوم.

هزت رأسها موافقة وقبل أن تخرج مِن الغُرفة أوقفتها الجِدة قائلة:

_ نعمة!

التفتت نعمة خلفها فقالت الجدة:

_وإذا أرادت أن تشتري شيئًا مِن تِلك الأغراض الّتي تستخدمها اشتريه لها أيضًا.

أجابتها قائِلة:

_أمرِك يا جدتي.

تركت نعمة الغُرفة مُتوجهه إلىٰ العنوان الّذي أعطته لها الجِدة سُعاد.

"الفصل الخامِس"

يقولون دائمًا أنَّ رغم سوء الانتظار، لكِنه يُبقينا علىٰ قيد الأمل؛ لذلك قضىٰ كريم ليله علىٰ قيد الأمل وانتظار اللحظة الحاسمة في قضية رقم ٥٠٧.

لِنرىٰ ماذا سيحدُث هل كان كريم مُحِقًا عندما سار خلف عاطفته أم أنّها مُجرد أوهام سار خلفها بلا وعي..؟

ليلة كئيبة تحت ضوء القمر وكريم في انتظار اللحظة الحاسمة، اللحظة الّتي ستُنهي ذاك الحريق المُشتعل برأسهِ، ساعات الليل تمرّ عليه وكأنها سنين عِجاف، يزحف الليل ببطء، فهو يُريد أنْ تنتهي هذه الفوضى في حياته الّتي بدأت مُنذ سبعة أشهر.

أشرق الصباح وهو جالس علىٰ مكتبه بيده ملف القضية رقم ٥٠٧، لم ينتظر حتىٰ تُهاتفه نادرة وقام هو بالاتصال بِها واتفقا علىٰ المُقابلة أمام المُختبر، نزل كريم بِسرعة البرق وأخذ تاكسي وتوجه فورًا إلىٰ المعمل؛ ليطلع علىٰ نتائج تحاليل ذمر الدم والـ DNA لنادرة والطفل وقضية النسب الّتي رفعتها نادرة ضِد أحد أكبر الصيادلة بِمصر والشرق الأوسط.

بعد مرور نصف ساعة وصل كريم إلىٰ المُختبر وظَل منتظرًا نادرة ما يُقارب مِن ساعة ونصف.

دقت الساعة العاشرة صباحًا عندما وطئت قدم نادرة مِن سيارة الأجرة علىٰ الأرض أمام المُختبر، سار كريم نحوها سريعًا وقال وهو يتنفس الصعداء:

_أخيرًا أتيتِ؟

تنهدت وقالت وصدرها يعلو ويهبط أثر سيرها بسرعة:

_معذرة يا أستاذ كريم ، كان الطريق مُزدحمًا (صمتت قليلًا ثم أكملت)

المعمل مفتوح؟

أجاب كريم سريعًا:

_نعم، منذ نصف ساعة تقريبًا أتىٰ المُمرِض وفتح الباب ودلف إلىٰ الداخل.

نظرت إليه ثم قالت وهي تمسك بيده:

_إذن هيا بِنا ماذا تنتظر؟

نظر إلىٰ يدها الّتي تمسك بيده بدهشة ورمقها بنظرة غير مفهومة فأخفضت يدها وقالت:

_معذرةً، أنا فقط أريد أن نذهب بسرعة، لم أقصد شيء.

رفع حاجبه الأيسر قائلًا:

_لا عليكِ.. هيا بِنا.

علىٰ الجانِب الآخر....

وصلت نعمة إلىٰ العنوان الّتي أعطتها إياه الجِدة سُعاد بالأمس والّتي كانت مِن المُفترض أنْ تذهب إليها منذ أخذته إلا أنَّ الجِدة قامت بإخبارها ألا تذهب إلا عندما تتأكد مِن عدم وجود عمار بالمنزل.

وطئت قدماها علىٰ أرض مُبللة في حيّ عشوائي قديم يكاد يكون كُلّ المنازل شِبه بالية، دقت الباب ببطء وهي تُقدم قدم وتؤخِر الأخرىٰ.

قامت تتنقل ببطء وهي تُتمتم بكلمات ليست مفهومة، فتحت الباب وبِمجرد أنْ فتحت الباب انبعثت رائحة كريهة مِن جميع أركان المنزل، عادت للخلف خطوتين ومِن ثم قالت:

_السيدة سُعاد أرسلتني إليكِ.

نظرت إليها ثم قالت وهي تمد يدها تجاه الداخِل:

_تفضلي، السيدة سُعاد اتصلت بي.

دخلت نعمة وجلست علىٰ الأريكة الموجودة بجانب الباب الخشبي الّذي أذابته المياه الراكدة علىٰ أرضية المنزل ترتجف رُعبًا، خرجت مِنها أول كلمة وكأن روحها تخرج معها قائلة:

_جـ.. جِدتي سُعاد تُريدِك أنْ تأتي اليوم لعمل زار للصغير، الأمر ضروريًا دائمًا ما يبكي ليلًا ولا ينام أبدًا ولا أحد يعرف ما السبب.

نظرت إليها وهي تهز رأسها مؤكدة حديثها وقالت:

_للأسف، السيدة سُعاد أخبرتني بِكلِّ شيء.

الآن خُذي معك هذه الحقيبة (وأشارت بيدها إلىٰ خلف الباب حيث توجد الحقيبة القماشية البيضاء)

واسبقيني إلىٰ البيت وأنا سألحقِك.

قامت نعمة تسير برعُب ومدت يدها تلك الّتي ترتجف بِشدة وأمسكت بالحقيبة وما إن مسكت بها حتىٰ شعرت بشيء يتحرك بِداخلها فألقتها صارخة بصوتٍ عالي ثم وضعت يدها علىٰ قلبها الّذي تعالى صوت خفقانه وقالت:

_بسم الله الرحمٰن الرحيم! ما هذا؟

انزعجت تِلك العجوز كثيرًا ثم قالت:

_بالتأكيد ستتحرك، بِداخلها دجاجة، لم تري زارًا مِن قبل؟

أغمضت عينها وأخذت نفسًا ثم أخرجته وقالت:

_حَسِبته شيء آخر (أخرجت زفيرًا ثم أكملت)

حسنًا سآخذها.

التقطتها بِسرعة البرق وذهبت تهرول مُسرعةً خارج المنزل.

☆☆☆

دخلا معًا إلىٰ معمل التحاليل الطبية ثم وقف يطمئن نادرة قائِلًا:

_لا تقلقي، دقائق معدودة وسنأخذ التقارير ونخرج مِن هُنا.

هزت رأسها في توتر ثم قالت:

_سنعرف هنا كلّ شيء؟

أجابها بهدوء:

_في العجلة الندامة يا نادرة، اهدأي سنأخذ التقرير ونذهب إلىٰ المكتب وسأقارن تقريرك بالتقارير الّتي أتىٰ بِها زميلي الطبيب "سِراج" المسئول عن حالة الطفل والّذي قام بعمل له جميع الفحوصات هو وأبوه والّتي تدعي أنّها أمه في السِر دون عِلمهم؛ كي لا يستطيعوا معرفة ما نخطط له ويُبدلون التقارير أو يعبثون بالنتائج.

اكتفت بهز رأسها وصمتت.

خرج الطبيب مِن غُرفة الفحص وبيده التقرير، قام كريم واقفًا يتحرك ببطء، أنفاسه تتلاحق وقلبه يخفق بِشدة، ثم قال بصوتٍ مُنخفِض:

_هذه تقارير نادرة، أليس كذلك؟

هز الطبيب رأسه موافِقًا وقال:

_نعم، تفضل.

مَد كريم يده بتردد وأخذها مِن الطبيب ثم قال:

_شكرًا لكَ علىٰ مُساعدتك، أشكرك مِن أعماق قلبي.

أخذ التقرير وأدار ظهره قائِلًا:

_هيا يا نادرة.

قامت نادرة وسارا معًا إلىٰ أنْ خرجا مِن باب المعمل، ثم قام كريم بسؤال نادرة قائِلًا:

_أخبريني يا نادرة مَن أسماكِ هذا الاسم النادر؟

دُهشت نادرة مِن سؤال كريم ولكِن سُرعان ما فهِمت أنَّه يُحاول تهدئة روعها وقالت:

_أمي، أمي مَن سمتني.

رفع حاجبه الأيسر مُتعجبًا وقال:

_ولِمَ هذا الاسم تحديدًا؟!

ابتسمت ثم قالت:

_سأُخبِرك...

أمي تزوجت أبي ولم تُنجب لمدة خمس سنوات وعِندما ذهبت إلىٰ مقام سيدي جابر تفعل كما نصحها النسوة نذرت نذرًا وبعدما أنجبتني أسمتني نادرة لأجل أن تفي بنذرها.

ضحك كريم ضحكة علىٰ أثرها ضاقت عينيه ومِن ثم قال:

_أمرهن عجيب هؤلاء الأمهات، لكن تعرفين؟

إنّهن كالمطر.. نعم كالمطر الّذي يُنبِت قحط أيامِنا زهرًا بدعواتهن في جوف الليل، إنّهن أصدق مَن يحمل لنا حُبًا داخِل أعماق قلوبهن.

نظرت إليه في تعجُب ثُم قالت:

_أهذا الحد تُحب والدتك؟

حرك بصره في جميع الاتجاهات ثم قال وهو يهز رأسه مؤكِدًا ما قالته:

_نعم وأكثر، إنّها الوحيدة الّتي تسكُن أعماق قلبي، ولا أعتقد أنَّ هُناك امرأة في هذا العالم ستُشاركها في قلبي، إنّها أعظم وأجمل امرأة ولدت علىٰ الإطلاق مُنذ ١٩٧٦م إلىٰ أنّ ينتهي هذا العالم.

نظرت له ثُم تنهدت وقالت:

_ليحفظها لكَ الله.

وأكملا طريقهما متوجهين إلىٰ مكتب كريم .

☆☆☆

دقت الساعة الواحدة مساءً، عمَّ البيت الهدوء حينها كانت زينة تجلس في غُرفتها وحيدة تنتظر الجِدة سُعاد؛ كي تُرسِل لها لتأتي برياض، لم يكُن لديها حل فهي بالرغمِ مِن أنَّها تمقت هذه الخرافات إلا أنّه لم يكُن يوجد أمامها أيّ خيار سِوىٰ الزار الّذي اقترحته الجدة سُعاد رُبّما يخلف ظنونها تِلك ويكون حلًا.. فقلبها الذي ينفطر كُلّ ليلة بصراخ ولدها لم تعُد تتحمل ألمه.

مرّت نصف ساعة وزينة يعتليها شعور الخوف والقلق تجلس شاردة الذِهن، قطع شرودها هذا صوت طرقات الباب، قامت ثم فتحت الباب فإذا بِها وجدت نعمة أمامها لتُخبرها قائلة:

_سيدتي.. الجِدة سُعاد تُريدِك أنْ تأتي برياض إلىٰ الأسفل، وأيضًا تُريدِك ألا تتأخري.

هزت زينة رأسها ثم تركتها نعمة وذهبت.

دخلت زينة ومِن ثُم أمسكت برياض وارتدت غطاء شعرها ونزلت علىٰ الدرج، في نفس هذه اللحظة تقريبًا كان باب المنزل يُفتح علىٰ مصرعيه لِتدخُل أولًا سيدة منحنية الكتفين تسيرُ علىٰ عُكاز مصنوع مِن جِذع شجرة، ترتدي عباءة سوداء وشال أسود يُغطي جميع وجهها، لم يكُن يظهر مِنها إلا ذاك الوشم المرسوم علىٰ يدها اليُمنىٰ والّذي يُشبه إلىٰ حد كبير العقرب أو ربّما هو عقرب بمرور الزمن تغيرت ملامح ذيله فأصبح هكذا.

نزلت زينة ببطء وقد بدأت رأسها تتخبط بِشِدة وعِندما نطقت هذه العجوز أولىٰ كلماتها بصوتٍ مُتحشرج قائلة:

_الله... حي..!

أحست زينة وكأنها تختنق، بدأت تشعُر بدوار يجتاح رأسها ومِن ثم استجمعت قواها واقترب لتقف أمام الجِدة سُعاد وهي تحتضن رياض بين يديها.

لحظات وبدأت العجوز الإعداد للزار وقامت نعمة بمساعدتها ومِن ثم مدت يدها نحو زينة لتأخذ رياض مِن بين يديها.

أعطته لها زينة وهي تشعُر وكأنها تُعطيها قطعة مِن قلبها فـعاطفة الأمومة لدىٰ زينة كانت قوية جدًّا تِجاه رياض، بدأت العجوز في التمتمة وذبح الدجاجة والطبل الّذي أزعج صوته جميع مَن كانوا بالمنزل، غمزت العجوز إصبعها في زُجاجة صغيرة مصنوعة مِن الزجاج، ذات لونٍ بُني وغطاء أسود وأدخلت إصبعها بفم رياض، وبعد مرور أربعين دقيقة تقريبًا أعطتها رياض مرّةً أخرىٰ وهي تتمتم في أذنه قائلة "بشاير.. بشاير".

اعتلت ملامح زينة الدهشة مما جعل العجوز ترفع الحِجاب عن رأسها قائلة:

_خدامتكم بشاير يا سِتنا.

نظرت إلىٰ هيئتها المُهملة وانقبض قلبها أثر تِلك النظرة المُخيفة الّتي رمقتها بِها بشاير.

"الفصل السادس"

للأمور دائمًا وجهان؛ وجه معروف ووجه مجهول.. لتروي لنا الجِدة سُعاد المعروف وعليك عزيزي القارئ اكتشاف المجهول بنفسك...

ليلة مُمطِرة كئيبة، الألم الّذي يتجول في زوايا كريمة كلٍّ مِن كريم وزينة قاتِل، ووحل الذكريات الغارقين بِه ليس هينًا، إنَّ الوحدة الّتي عاشها كلّ مِنهما لا زالا يُعانيها لكِن كلّ في مكانٍ مُختلِف.

تجلِس زينة مُنكسة الرأس علىٰ أرضية الغُرفة ترتجف بردًا رُبّما لا ترتجف أثر برد الشتاء بل الرجفة الحقيقية أثر برد الذكريات الّتي مَزقت بِداخِلها معاطِف الاطمئنان، فهي وحيدة مُنذ ذاك الحادث الأليم الّذي قَلْبَ حياتها رأسًا علىٰ عَقِب، تِلك الحادثة المؤلمة الّتي رأتها وهي في الخامسة عشر مِن عُمرها جعلتها تتناول المهدئات العصبية بِكثرة، لكِنها بالرغمِ مِن كلِّ هذا فهي تُعد امرأة قوية، فكيف لامرأة رأت أشلاء أبيها مُقطعة أمامها أكبر جزءٍ مِنهما في حجم عُقلة الإصبع أنْ تُكمِل حياتها وتصل إلىٰ الرابعة وعشرين تجلس أمامنا تلوح بالبؤس الّذي يملأها؟!

قطع شرودها صوت البرق الّذي جعلها تنتفض رُعبًا لتفيق علىٰ صوت خطواتٍ أمام غُرفتها، مسحت دموعها الّتي تسيل علىٰ وجنتيها الحمراوين وقامت تسيرُ ببطء تتحسس الجدران إلىٰ أنْ فتحت باب غُرفتها وراحت تلتفت حول نفسها في كُلِّ مكان، رأت أثار أقدام علىٰ الأرض، استجمعت قواها وسارت خلف أثار الأقدام الموجودة علىٰ الأرض إلىٰ أنْ وصلت إلىٰ

غُرفة الجِدة سُعاد، وقفت علىٰ باب الغُرفة ترتعِش، وجهها يتصبب مِنه العرق كالسيول، ابتلعت ريقها بصعوبة ومِن ثم وضعت يدها علىٰ مِقبض الباب وفجأة فُتِحَ الباب دون أنْ تضغط علىٰ المقبض، دلفت بقدمها داخِل الغُرفة فلم تَجِد الجِدة داخِل الغُرفة، بدأت تتلفت يمينًا ويسارًا فلم تشعُر إلا عندما وضعت الجِدة سُعاد يدها علىٰ خِصرها، حدقت بعينيها وتجمدت في مكانها، التفتت ببطء لتجد الجِدة سُعاد، ولكِنها لم تستطع النطق فبادرت الجِدة بالحديث قائلة:

_كُنت بالمطبخ (ثم مدت يدها اليُمنىٰ بقطعة مِن الكيك ووضعت اليد اليُسرىٰ علىٰ معدتها وأكملت) شعرت بجوع شديد يا ابنتي لم أشعر بِه مِن قبل؛ فذهبت إلىٰ المطبخ ومررّت مِن أمام غُرفتِك؛ كي أطمئن عليكِ ولما شعرت بهدوء يعُم الجو حسبتِك نائمة.

تنهدت ثم أكملت قائلة:

_رياض نائم بِسلام، لو لاحظنا هذا الهدوء لمدة أسبوع كلّ فترة سنُرسِل إلىٰ بشاير؛ كي نحميه مِن شرِ الحاسدين.

سكتت قليلًا وقالت:

ـأعلم أنَّكِ لستِ علىٰ ما يُرام، لكِن يا ابنتي داومي علىٰ أخذِك للأدوية وصوتِك سيتحسن قريبًا، تتذكرين عندما كُنتِ صغيرة وغاب صوتِك لِمدة شهرين تقريبًا وعاد بعدها؟ (ثم ربتت علىٰ كفتها وأكملت) لا تقلقي ستكونين بخير، دعواتي لكِ ستُستجاب.

هزت زينة رأسها ثم ابتسمت ابتسامة خفيفة وخرجت مِن غُرفة الجِدة مُتجه إلىٰ غُرفتها.

أثناء عودتها إلىٰ غُرفتها كانت الأفكار تتصارع داخِل رأسها، الأسئلة تُمطِر مَطرًا بِدخِلها تارةً بخصوص رياض وتارة أخرىٰ بخصوص إصرار الجِدة علىٰ عدم تجديد الغُرفة بعد الحريق الّذي التهمها، كيف لنِعمة المسكينة أنْ تُنظِف كُلّ هذا بمفردها؟ ولِمَ إصرار الجِدة ألا يُنظفها أحد سِوىٰ نعمة؟

علىٰ الجانِب الآخر....

جالس كريم بين أوراقه يصب مِنه اليأس صبًا يروي قائِلًا "عُدتُ مهزومًا ولم أشعُر بِمثِل هذه الهزيمة مِن قبل في عملي، فقد كُنت كالّذي اعتنىٰ بزرعةٍ وعِندما كبرت وأكل مِنها سممته" .

غَرق في ذهولهِ ولم يستطع النطق، لم يشعُر بشيء سِوىٰ بالبركان الثائِر داخِل عقله، تِلك الأسئلة الّتي تدور بِداخِل رأسه، مشهد انكسار نادرة لا يزال أمامه.

عودة للماضي...

وصلا كريم ونادرة إلىٰ مكتب كريم ، كانت حينها الساعة حوالي الثانية والنِصف مساءً، فتح كريم باب مكتبه ودلِف إلىٰ الداخِل وأنار المصباح ثم سمح لنادرة بالدخول، جلست نادرة علىٰ الكُرسيّ المُقابِل للمكتب، وضع كريم تقرير تحاليل نادرة ثم قام وفتح خزنة مكتبه وقبل أنْ يمد يده ويأخذ الملف الموجود بِه ذمر دم الطفل وتحاليل الـ **DNA** الّتي تخصه شعر بقشعريرة اهتز علىٰ أثرها بدنه فقد كان يفصله عن معرفة الحقيقة دقيقة واحدة، هو في قرارة نفسهِ لا يعلم أهو في صف الباطل أم في صف الحق، فهو كُلما وجد دليلًا في هذه القضية تحديدًا يدُل علىٰ عدم مِصداقية نادرة، فهي بالفِعل مِن المُمكِن أن تكون بحاجة لبعض النقود جعلتها تكذب في قضية مُهمة مِثل هذه وترمي بالزور والبُهتان علىٰ أحد كِبار رجال الأعمال والأطباء في مِصر السيد "عمار حسن عبد التواب البحيري".

فاق مِن شروده علىٰ صوت نادرة المُتردد قائلةً:

_ماذا بِك يا أستاذ كريم ؟

أخذ نفسًا عميقًا ثم أطلق زفيرًا وقال:

_لا شيء.. لا تقلقي.

أخذ الملف وجلس علىٰ مكتبهِ وبدأ في قراءة التقارير الخاصة بالطفل "رياض عمار حسن عبد التواب البحيري".

بدأ قلبه يخفق بِشِدة فهو بالرغم مِن ظاهرهِ اللامُبالي إلا أنَّه يمتلك قلبًا رقيقًا.. نقي يُشبه نقاء الأطفال، ارتعشت يده وهو يمدها نحو التقرير، قام بفتح التقارير الخاصة بِنادرة أولًا ثم قام بفتح التقارير الخاصة بالطِفل رياض.

بعد مرور سبعة عشر دقيقة بالضبط أغلق كريم التقارير بعد أن تغيرت ملامحه تمامًا، لاحظت نادرة التغير الحادِث لِملامحه فقالت مُترددة:

_ماذا حدث يا سيد كريم ؟

لم تلقَ مِنه سِوىٰ الصمت الّذي احتاجه فجأة، كررت سؤالها قائلة:

_أستاذ كريم ..! ماذا حدث، أخبرني؟

رفع كريم نظره قائِلًا بِحدة:

_لِمَ تفعلي كلّ هذا؟ أخبريني يا نادرة لِمَ كلّ هذا الخِداع؟

نظرت نادرة إلىٰ كريم بعدم فِهم وقالت:

_خِداع! ماذا تقصد يا سيد؟

لم يستطع كريم السيطرة علىٰ حاله فارتفع صوته تدريجيًا قائِلًا:

_مُقارنة التقارير تُثبت أنَّ الطفل "رياض" ابن الطبيب عمار والأم السيدة "زينة محمد عليوة جاد الله" وليس وَلَدِك.

حدقت عيناها واتسعت أثر الصدمة الّتي تلقتها ولم تستطع النطق، ثم قالت وبصوتٍ مُتقطِع:

_كـ.. كيف؟ رياض ولدي أنا، أنا مَن حملته في بطني تسعة أشهر وليست هي.

قام واقفًا يضرب بيده علىٰ المكتب قائِلًا:

_التقارير تُثبت عكس ذلك، كان مِن المُمكِن أن نقول أنَّ السيد عمار قام بتزويرها، لكِني أخبرتِك أنَّي حصلت عليهم في سرية تامة بواسطة الطبيب "سِراج".

التقارير الخاصة بالدم تقول...

" إنَّ ذمرة دم الأم زينة محمد عليوة جاد الله (O) وذمرة دم الأب عمار حسن عبد التواب البحيري أيضًا (O) مما أدىٰ لوراثة الطفل رياض عمار حسن عبد التواب البحيري أيضًا للفصيلة (O) والـ DNA لبُصيلة شعر الطفل مُطابقة أيضًا لـ DNA الأب ونِصف المادة الوراثية مُطابقة تمامًا للأم زينة محمد عليوة جاد الله.

وتقاريرك تنص علىٰ أنَّكِ حاملة لفصيلة الدم (AA) والفصيلة (AA) لا تُعطي أبناءً يحلمون فصيلة (O) بالإضافة أنَّ تحاليل الـ DNA الّتي أجريت لكِ غير مُطابقة تمامًا للمادة الوراثية للطفل"

سالت الدموع مِن عينيها شلالًا وبكت بهستيرية، لِكن كريم اتخذ قرارًا سريعًا أثر خيبة الأمل الّتي أصابته وقال:

ـنادرة.. مِن اليوم أنا لستُ مسئولًا عن قضيتِك، لكِ مُطلق الحُرية في توكيل أحد آخر.

ثم تركها في مكتبه وعاد مُهرولًا بِسرعة إلىٰ بيته.

عودة للحاضر...

في اليوم التالي وصله الحُكم في القضية رقم ٥٠٧ أحوال شخصية لصالح الطبيب عمار وقامت المحكمة بقفل القضية بعد تنازل الطبيب عمار عن أيّ حقوق له مُقابِل اتهام نادرة له، وأذاعت قنوات الأخبار الشهيرة الحدث مباشرةً.

"الفصل السابع"

يقول ويل ديورانت

"إنَّ الفلسفة تبدأ عندما يبدأ الإنسان يتعلم الشك"

الشك هو الخيط الّذي بحث مِن خِلاله كريم عن الحقيقة وكشف المستور.

"تِلك الأمسية الحزينة الّتي عشتها بين أوراقي منذُ شهران لا أستطيع نسيانها، الدموع الحارة.. الصرخات الّتي انطلقت كالمدافِع في ساحة المحكمة، الضياع الّذي أصابني حينها، رماد الأوهام الّتي عشتها في قضية نادرة.. وحل كريمتي الّذي أغرق بِه، أشباحُ ماضيَّ الّتي تُطاردني، الفراق الّذي عانيته كثيرًا، الخذلان الّذي طعنني في مُنتصف قلبي وأشياءً كثيرة مؤلمة لم أستطع التَخلُص مِنها، ألم يكُن كُلّ هذا كافيًا ليُراودني شعور جديد مِثل الّذي أشعر بِه الآن؟!

الشك.. إنَّه شعور حارق كالنار الّتي تأكُل صاحِبها، صدقني يا عزيزي أدركتُ حقًا أنَّه شعور يمكنه أنْ يجعلك رمادًا وأنتَ تجلس في غُرفتك وبين أوراقك"

~~كريم~~

بعد مرور شهرين تقريبًا...

رُبّما تعلم كريم عدم الانسياق خلف عواطفه مرَّة أخرىٰ، هو بالفعل شخص عقلاني لم يتخذ قرارًا بعاطفته قط، لكِن قضية نادرة هو يعلم جيّدًا أنَّ مشاعره هي الّتي تحكمت بِه وساقته لتوليه شأنها، رغم أنّه يعلم خطورة الموقف الّذي وضع نفسه فيه أمام أحد أكبر رجال الأعمال والأطباء وصاحب أكبر شركات

الأدوية حول العالم، لكِن لم يُفكر في كُلِّ هذا أمام دموعها الحارة الّتي استخدمتها كوسيلة لِجعله يتولى القضية.

في نفس الوقت قد تبدلت الأحوال تمامًا في منزل عمار فقد أصبح الجو أكثر هدوءً عن ذي قبل، أصبح رياض لا يبكي مِثل قبل وأصبحت العجوز بشاير تتردد علىٰ المنزل في غياب عمار؛ مما جعل حالة رياض تستقر.

أما عن زينة فقد كان تعلُقها بـرياض يزداد يومًا بعد يوم، تملكها الاطمئنان خاصةً بعد حُكم المحكمة لهم بحضانة الطِفل بعدما تقدم ما كان يُثبِت افتراء نادرة وأنَّ كُلّ ما فعلته كان مِن أجلِ المال فقط.

الساعة الثامنة صباحًا يقف كريم في شُرفة المنزل يستنشق هواءً نقيًا لفت انتباهه شيئًا غريبًا، عاد ببصره مرّة أخرىٰ إلىٰ شُرفة جارتهم والدة أمل، دقق النظر ولكِنه لم يستطع رؤية أحد، كلّ ما رآه فقط هو يد بُنية اللون.. جلدها غير طبيعي موضوعة علىٰ سور بلكونة الجارة، تعمد ألا يُطيل النظر فقد كان كريم شخصية تحسب كلّ خطواتها بالورقة والقلم، لم يُرد أن يراه أحد أو تخرج أمل فجأة وتحسبه يبحث بنظره عنها.

دخل كريم وغسل يده وخرج لأمه الّتي كانت تنتظره للإفطار في صالة الشقة، جلس مع والدته وتناولا الإفطار ثم ذهب إلىٰ غُرفتهِ ليرتدي ملابسه ويذهب إلىٰ عمله.

☆☆☆

الخامس عشر مِن فبراير، الساعة الثانية صباحًا...

الأوراق المُبعثرة علىٰ الأرض، رائحة الدم الموجود علىٰ المنديل الأبيض مُنذ أكثر مِن خمسة عشر عامًا، الصور المُمزقة والخريطة المُتقنة الرسم أمامها تلك الّتي لم تتعرف علىٰ محتواها بعد، تِلك الأدلة البالية.. الورق الأصفر والحِبر المسكوب عليهم وعدم وضوح ما كان مكتوبًا.. كُلّ هذه الأشياء تجعلها تتناول المُهدئات بكثرة، كلّ هذه الأشياء لم تكُن كافية في نظرها لكشف الحقيقة المُخبئة خلف جدران زنزانة الألم الّذي اجتاح قلبها.. زينة ومَن سواها يتأجج داخِله بالانتقام؟!

كلّ هذه الأشياء جمعتها في صندوقٍ خشبيّ ولم تُخبِر أحد عن مكانه، كلّها أدلة جمعتها منذ أنْ كانت في عُمر الثامِنة عشر عدا تِلك الورقة المسكوب عليها الحِبر فقد عثرت عليها بين أغراض أبيها يوم وفاته، هي تعلم أنَّ ما حدث لوالدها بفعلِ فاعِل، لكن كلّ هذه السنوات لم تمرّ عليها لتُنسيها بل لتُزيد تأجج نيران الانتقام بِداخِلها.

جمعت جميع الأدلة الموجودة أمامها علىٰ الأرض مرّة أخرىٰ وأعادتهم إلىٰ الصندوق قامت بغلقه ثانيًا وقامت لِتُعيده إلىٰ الغُرفة السِرية الموجودة خلف حديقة المنزل لحين حصولها علىٰ أيّ دليل جديد.

تروي زينة قائِلة...

كُنتُ أسيرُ بخطواتٍ هادئة؛ كي لا يشعُر أحد بي، تلصصتُ الخطوات حتىٰ وصلت إلىٰ باب الغُرفة الخلفية الموجودة خلف حديقة المنزل، نزعتُ الحِذاء مِن قدمي وتركته أمام الغُرفة قبل أنْ أزجُ بنفسي تحت السرير القديم الموجود بها، تملكني الهلع عندما شعرتُ بخطواتِ العامل تقترب مِني، حَسِبته أحدًا مِن العائلة، فقد سيطرت عليَّ هواجس رؤية الجِدة سُعاد في كلِّ مكان أذهب إليه، فهي دائمًا ما تُلاحقني؛ خوف أن يُصيبني أيّ مكروه.. فهي اليد الوحيدة الّتي ربتت علىٰ كتفي منذ أن ماتا أبي وأمي.

أخذتُ نفسًا عميقًا ومِن ثم قُمت مِن مكاني ووضعتُ الصندوق في مكانه الّذي اعتدتُ أنْ أضعه بِه.

عُدتُ إلىٰ غُرفتي بِسرعة البرق؛ كي لا يستيقظ رياض ولا يجدني أمامه.

دلفت بقدمي اليُسرىٰ إلىٰ غُرفتي، لكنِي عُدتُ خطوتين إلىٰ الخلف وحدقت عيناي وتصبب العرق مِن وجهي كالسيل.

لقد تذكرتُ حذائي الّذي نسيته أمام الغُرفة الخلفية، ضربتُ بيدي رأسي "كيف نسيته هناك؟".

عُدتُ أتنهد فلم أعُد قادرة علىٰ العودة ثانيًا، لقد جف حلقي ولم أعُد قادرة علىٰ تحمل الظمأ أكثر مِن ذلك، لكني ركضتُ بسرعة نحو الجهة اليُسرىٰ الموجودة بها الغُرفة، ما أدهشني حقًا هو وجود الجِدة سُعاد في هذا الوقت هنا.. تراجعتُ عِدة خطوات؛ كي لا تراني واختبأتُ خلف الشجرة أُراقبها، لكن سُرعان ما اختفت ولم أعرف إلىٰ أين ذهبت، لم أُبالِ بغيابها وذهبت مُسرعة.. التقطتُ حذائي وعُدتُ بِسرعة متوجهة إلىٰ غُرفتي.

قبل صعودي علىٰ السُلم وقفت أستند علىٰ حافته وأنفاسي تتلاحق بِسرعة، وجهتُ نظري ناحية اليمين حيثُ يوجد المطبخ، ركضتُ مُسرعة نحوه لأتناول كوبًا مِن الماء، وعندما دلفت قدماي إلىٰ المطبخ ووضعتُ يدي علىٰ الثلاجة شعرتُ بصوتِ خطواتٍ خلفي، التفت لأرىٰ مَن الآتي لكني لم أجد أحدًا، التقطتُ الزُجاجة وبدأت بصبِ الماء داخِل الكوب، ولكِن فجأة رأيتُ جدتي سُعاد عائِدة بيدها حقيبة سوداء قُماشية، وضعتُ الكوب وبجانِبه الزُجاجة وصعدتُ خلفها أتلصص خطواتي، دقائق معدودة وبدأتُ أشعر بالتعب لكني كُنت مُصرة علىٰ معرفة ما تفعله الجِدة، وقفت خارج الباب أتنصت ولكِن فجأة لم أشعر إلا والجِدة أمامي تجلس علىٰ الكُرسيّ المُتحرك خاصتها، حدقت عيناي وبرزا إلىٰ الخارج ولم أستطع النطق، أنا بالفعل لا أستطيع النطق لكن المُفاجئة كانت صادمة.

على جانِب الآخر يجلس كريم وبيده هاتفه يتصفح الإنترنت، لكِن رأسه لا زالت مُشتعِلة بأفكاره تجاه قضية نادرة، تارةً يُلقي اللوم علىٰ ذاتِه وتارةً يشعُر أنَّ هُناك شيء غريب يحدث لكنه عاجز عن كشفه.

أثناء تصفحه لفت انتباهه شيئًا غريبًا لإحدىٰ الصفحات الإلكترونية الّتي تُعلِن عن أطفال للتبني، قام شخص يُدعىٰ (.....) بإرفاق إعلان كالتالي:

" يوجد أطفال للبيع مُقابِل المال، أيّ سيدة ترغب أنْ تكون أُمًا، أيّ رجل يرغب أن يكون أبًا عليه الاتصال بالأرقام التالية.....

رجاء الجِدية في التواصل، مَن يُريد شِراء طِفل مُقابِل المال عليه الإسراع في التواصل"

برزت عينا كريم أثر الصدمة الّتي تلقاها، لكِنه تمالك نفسه وقام بحفظ الإعلان لحين التأكُد مما شكَ بِه.

"الفصل الثامن"

"إنَّ الفقر هو الوحش الّذي يلتهم العقول ويقتل القلوب ويخنق الأحاسيس الإنسانية ويجعل المرء يهيم في درب الحياة دون أمل يفتعل الجرائم"

ليست الجرائم مُقتصرة علىٰ القتل فقط، إنما أكبر جريمة هي الفقر.. الفقر الّذي يُجبِرك علىٰ الإتجار بنفسك.

غرابيب الفراق السوداء.. تِلك الّتي أفقدت الجميع لذة العيش بسلام، كؤوسه المُرَّة الّتي سممت أوردتنا، ساعات الليل المُتأخرة الّتي تضمر بداخلنا نيران الفراق الحارقة، ألغام الغياب، سهام الصبر الّتي لم نعُد نطيقها.. كلّ هذا وأكثر لا يصف مرارة الشعور وقُبحه، إنَّها ليلة كئيبة؛ الخامِس عشر مِن فبراير، الساعة الرابعة وثمان دقائق صباحًا دقَ هاتف نادرة لتُخبرها المشفىٰ بضرورة التوجه إليها الآن.

أغلقت نادرة الهاتف وقامت بِسُرعة تفرك عيناها وأخذت الشال الأسود الموضوع علىٰ الوسادة بِجانب رأسها وهرولت مُسرعة نحو الباب وخرجت تسير بسرعة إلىٰ أن وصلت إلىٰ المشفىٰ، صعدت إلىٰ الطابق الخامس بالمصعد وعندما دلفت قدماها خارج المصعد لم تستطع السيطرة علىٰ نفسها، فقد تشنج ساقيها ولم تعُد قادرة علىٰ النطق فقد أخبرها الطبيب أنَّ زوجها المدعو " عوض الله جابر محفوظ عبد القادر" قد توفاه الله.

صوت صرخاتها دوىٰ في جميع أرجاء المشفىٰ، القهر والآسى الّتي تحدثت بهم جعل الجميع يُشفق عليها، وبينما هي مُنهمكة وسط بكائها وصوتها الّذي اهتز علىٰ أثره كُلّ شيء بالمشفىٰ وقف أمامها رجل متوسط الطول، ثمين إلىٰ حدٍ ما

يرتدي بنطال أسود مصنوع مِن القماش وقميص أسود بالي، تظهر علىٰ يده أثار زيوت وشحوم السيارات، قطع بكائها ونحيبها صوته الغليظ قائِلًا:

_أنا "الأسطى هاني" ميكانيكي سيارات.. وجدت السيد عوض الله مُلقىٰ علىٰ الطريق وأنا عائد مِن عملي، وجدته كان راقدًا يلتوي مِن الألم، لكِنه لم يستطع النطق فأسرعت بِه إلىٰ هنا وبعد مرور ساعة تقريبًا أخبرني الطبيب بوفاته وعلىٰ هذا الأساس اتصلت بكِ؛ لأن هاتفه وقع مِن جيب بنطاله في أرضية السيارة الّتي نقلتنا إلىٰ هُنا ومِن حُسن حظي أنّ السائق انتبه وأعاده لي.

رفعت رأسها ببطء، لقد كان شكلها مُخيف للغاية، عيناها الحمراوان وجفونها السوداء وحدق عيناها وبروزهما المُخيف، هزت رأسها فأكمل هاني قائلًا:

_معذرةً في سؤالي، لكن زوج حضرتك كان يتعاطى شيء؟

صدمها السؤال صدمة شديدة وقالت:

_ماذا..؟!

قال مُترددًا:

_سمعت الأطباء يقولون هذا، لكنهم مُنتظرين تقرير الطبيب الشرعي؛ كي يتأكدوا.

جنَّ جنونها وراحت تضرب كُلّ شيء أمامها قائلة:

_مستحيل.. لن أسمح لأحد أن يمس جسده أبدًا، لن أسمح.

منعها الممرضات مِن الدخول إلىٰ غُرفة الطبيب وركضت علىٰ الأرض تبكي بحرقة.

بعد مرور ساعتين قد دقت السابعة وثلاث دقائق صباحًا قد أصابتها حالة مِن اللاوعي جلست علىٰ الأرض مُنكسة الرأس تدفن رأسها داخِل قدميها ترتعش مِن البرد، فقط سمعت صوت خطوات تقترب مِنها قائلة:

_الطبيب يُريدك..

استجمعت قواها واستندت علىٰ يد "الأسطىٰ هاني" وذهبت إلىٰ مكتب الطبيب، بمجرد أن دلفت بقدمها داخِل المكتب رحب بها الطبيب وقام بتعزيتها قائِلًا "عزائي الحار إليكِ" جلست علىٰ الكُرسيّ المواجه للطبيب وأمامها الأسطى هاني، تنهد الطبيب بيأس قائلًا:

_للأسف سيدتي تقرير الطبيب الشرعي أثبت موت زوجك أثر جرعة زائدة مِن المُخدرات.

قرضت علىٰ أسنانها وبدأ صوتها يتعالى بالتدريج قائلة:

_زوجي لم يكُن يتعاطىٰ شيء! قُلتُ ذلِك مِن قبل ولن أُعيده ثانيًا.

نظر إليها الطبيب باستغراب ثم قال:

_أنا مُقدِر صدمتك، لكن هذه الحقيقة (ومدَ يده الّتي تحمل التقرير نحو نادرة وأكمل) تستطيعين التأكُد بنفسك.

رفعت نظرها نحوه قائلة:

_لا أُجيد القراءة، أنا لستُ مُتعلمة.

نظر إليها الأسطىٰ هاني وقال:

_أنا أستطيع أنْ أقرأه لكِ.

ثم مد يده وأخذ التقرير وبدأ في القراءة قائِلًا:

" موت مُفاجئ إثر جرعة عالية مِن المُخدرات حيثُ أثبتت بوصيلة الشعر المأخوذة مِن المتوفي أنَّه يتعاطىٰ مُنذُ أكثر مِن ثلاث شهور، مُعدل نمو شعر الرأس حوالي مِن ١ سم إلىٰ ١.٥ سم في الشهر ومِن خِلال فحص المقاطع العرضية المُختلفة لشعر المُتوفي أُثبت أنَّه يتعاطىٰ منذ أكثر مِن ثلاثة أشهر، كما أن شعر المريض المُجعد الداكِن ساعد في إثبات تعاطيه، هذا بالإضافة إلىٰ تحاليل الدم الّتي أثبتت تعاطيه أيضًا".

رفع هاني نظره نحو نادرة قائِلًا:

_هذا هو المكتوب بالنص.

علىٰ الجانِب الآخر فتح كريم عينه للوهلةِ الأولىٰ لم يعرف أين هو، نظر حوله في كلِّ مكان ثم أدرك أنَّه نام ليلة أمس في صالة المنزل بعد أنْ غلبه النُعاس وبيده هاتفه، نظر إلىٰ هاتفهِ وتذكر الإعلان الّذي رآه ليلة أمس ومِن هُنا قرر الذهاب إلىٰ بيت نادرة؛ كي يتأكد مِن شكوكه.

☆☆☆

تسرب ضوء الشمس مِن ستائر النافِذة، ظلت زينة مُستلقية في فِراشها تتململ لا تُريد أن تتركه وتِلك الرجفة الّتي شعرت بها أمس لا زالت تشعر بأثرها فلحُسن حظها أنَّ الجدة لم تسألها عن سبب وجودها أمام غُرفتها بهذا الوقت المُتأخِر، لكِن لا زالت أيضًا تِلك الأسئلة حول وجود الجِدة بجانب الغُرفة الخلفية في ذاك الوقت المُتأخِر تأكل رأسها.

بعد نصف ساعة قامت مِن فِراشها وبدلت ملابسها وملابس رياض ونزلت إلىٰ الأسفل في انتظار العجوز بشاير كما أخبرتها الجدة.

نزلت علىٰ الدرج وهي تحمل رياض بين يديها وجلست علىٰ الأريكة تحتسي كوبًا مِن الشاي، دخلت الجِدة سُعاد إلىٰ صالة المنزل وقالت:

_عجيب! زينة كنت سأرسل لكِ أنَّ السيدة بشاير لن تأتي اليوم؛ لأن زوج ابنتها توفى فجر اليوم.

دُهشت زينة مِما قالته الجِدة وبدا علىٰ ملامحها الكثير مِن الأسئلة، لكنها لم تستطع النطق.

أكملت الجدة قائِلة:

ـنعمة أخبرتني بالفاجعة مُنذ نصف ساعة تقريبًا؛ لِذلك قُلت لها أن تذهب إلىٰ غُرفتِك وتُخبِرك؛ كي لا تتعجلين في تجهيز رياض (صمتت ثم أكملت وهي تتنهد)

لا بأس، المهم الآن أنتِ بخير؟ تتناولين دوائِك في مواعيده؟

هزت زينة رأسها مؤكدة.

هزت الجِدة رأسها قائلة:

ـجيّد.. جيّد، ليحفظِك الإله يا ابنتي.

ثم أدارت الكُرسيّ المُتحرك وذهبت متوجهة نحو المطبخ.

وقفت زينة وقد بدت علىٰ ملامحها الكثير مِن التقلبات والأسئلة المُبهمة ثم أخذت رياض وذهبت إلىٰ غُرفتها؛ كي تُعِد له وجبة الحليب.

☆☆☆

عمَّ الهدوء البيت الصغير بعد مدافع الصرخات الّتي أُطلِقت بِداخِله أثناء تشييع جنازة عوض الله وبدأ النساء يترددن علىٰ المنزل لأداء واجب العزاء بالرغم مِن استياء الجميع مِن وجودهم المُزعج بالحيّ إلا أنَّ المواساة واجبة في مِثل هذه الظروف.

في نفس الوقت كانت جميع العيون مصوبة نحوه، بنطاله الجِينز وقميصه الأبيض الناصع، نظارته السوداء الّتي يرتديها، حضوره المُتميز وهيئته الهادئة.. كانا لهما عامل كبير في تصويب النظرات عليه، فكيف لشاب يبدو عليه كُلّ هذا الهدوء أن يسير بمنطقة عشوائية مُتعفنة مِثل هذه؟!

مشاعِر مُختلطة ما بين الشفقة والدهشة سيطرت علىٰ كريم ، رؤيته للأطفال الّذين أفقدهم الفقر لذة الاستمتاع بطفولتهم والأمهات اللّاتي قطع الفقر آمالهن في العيش بطريقة نظيفة، الآباء الّذين تقطعت أيديهم مِن كثرة النحت في صخور الفقر؛ كي يأتوا لأولادهم ببعض لُقيمات الخُبز وقروشًا يُنفقونها لأجل تأمين عشاءهم.. كُلّ هذا جعل قلب كريم يعتصر ألمًا وتشتت أفكاره مِن جديد، حاول بقدرِ الإمكان أن يستجمع شتاته ويسأل عن مكان بيت نادرة، ولكِنه فوجئ بخبر موت زوجها، اجتاحت كريم صدمة شديدة أثر ما سمعه، لكِنه حاول تمالك مشاعره وسار كما وصف له أحد المارة إلىٰ أنْ وصل

أمام بيت نادرة، ذاك الّذي إذا رآه أحد ظنه أحد أكشاك السجائر المُقامة علىٰ أحد جانبي الطريق، وقف كريم ما يُقارب النصف دقيقة ثم صعد الدرج وطرق الباب.

فتحت الباب فتاة في سِن الثامنة تقريبًا ونظرت إلىٰ هيئة كريم باستغراب ثم قالت:

_ماذا تُريد؟

نظر إليها ثم قال بابتسامة خفيفة:

_نادرة موجودة؟

تقلص وجهها وقالت باستغراب:

_وماذا تُريد مِن نادرة يا سيد؟

قال بهدوء:

_أخبريها أنَّ الأستاذ كريم إدريس يُريدها في الخارج إذا سمحتِ.

أدارت ظهرها ووقف كريم مُنتظرًا إياها في الخارج.

بعد عِدة دقائق خرجت نادرة ورحبت بكريم ، وجلس يحتسي القهوة المُرّة الّتي أعدتها له والدة نادرة وأرسلتها مع الطفلة، بادر كريم بالحديث ليقطع الصمت الّذي عمَّ المكان قائِلًا:

_كنتُ أظن السيد عوض الله أخاكِ، حسبتك تزوجتِ عمار فقط، لم أكُن أعرف أنَّكِ تزوجتِ بعده.

نظرت له قائلة أنا لم أتزوج عمار قط، أنا كذبت عليك عندما قُلت ذلك.

صُدم كريم مما سمعه ثم وضع كوب القهوة بجانبه علىٰ الأريكة قائِلًا:

_كيف؟!

قالت نادرة بضجر:

_كما سمعت، أنا كنت زوجة عوض الله منذ خمسة أعوام.

حاول كريم تمالك أعصابه قائلًا:

_ولِمَ كذبتِ عليَّ، والمهم كيف مات زوجك؟

صمتت ولم تُجاوب فقال كريم :

_أكان مريضًا؟

رفعت نظرها وقالت والدموع تسيل علىٰ وجهها:

_الفقراء مِثلنا لا يكتشفون الأمراض إلا بعد أن يسقطوا صريعي المرض يا سيد كريم ، ثم يُحملون إلىٰ المشفىٰ لأول مرة وهم موتىٰ؛ لأن ظروفهم وهم أحياء لم تسمح لهم بالوقوف علىٰ بابها حتىٰ، ولكِن كُتب عليهم دخولها صرعىٰ بعد أن يأكل المرض في أجسادهم أكل الذئاب، يدخلونها فقط لِيُمزق مِن أجسادهم لأجل تِلك التقارير الطبية الكاذبة المُزورة الّتي تتغير وتتبدل أسهل مِن شُرب الماء (تنهدت ولاذت بالصمت لمدة دقيقة ثم أكملت وهي تُخرِج زفيرًا مِن حرارته كاد أن يحرق العالم بأكمله)

زوجي كان مريض فشل كلوي منذ أكثر مِن ثلاث سنوات؛ لذلك كان لا يعمل، أنا كنتُ أتكفل به هو وأمي، ولهذا السبب أيضًا اضطررنا لبيع ولدنا رياض وهو ابن شهران فقط لعمار.

أما بالنسبة للقضية الّتي رفعتها ووكلتك بها فهي كانت لأجل أن آخذ باقي المبلغ الّذي رفض عمار تسليمه لنا بعد أن أخذ الولد.

لم يستطع كريم النطق واكتفى بالصمت والخروج بسرعة مُهرولًا وسط شوارع لا يعرفها، شوارع أكلت المياه الراكدة العفنة مِن أجسادها.

"الفصل التاسع"

يقول الفيلسوف أرسطو

"الفقر هو أصل الثورة والجريمة"

فهل يا تُرا الفقر مبررًا كافيًا لِمَ يفعله مرتكبي الجرائم؟

الخروج عن النص هو أحد سماته والبحث خارج إطار الصندوق صفة لا يتمتع بِها الكثيرون، فهو لا يخسر أبدًا إما أنْ يفوز أو أنْ يتعلم، فهو مؤمِن جدًّا بمقولة "لكي تكون فائزًا جيّدًا يجب أنْ تكون خاسِرًا جيّدًا".

هكذا تعلم كريم ألا يُخبر الآخرين بكُلِّ شيء يعرفه فهو بالرغم مِن علمهِ بكذب نادرة إلا أنَّه أوهمها بتصديقه لها حينما أخبرته عن عدم زواجها مِن عمار.. هو فقط ينتظر معرفة الحقيقة كاملة.

السابع عشر مِن فبراير مُنتصف الليل...

بدأت تتطور بالانطوائية، فهي إنسانة مليئة باليأس والتشاؤم، تناولها المُهدئات جعلها تظُن أنَّ هذا سَيُخفف مِن وحدتها، لا زالت كُلّ ليلية تُبعثر صندوق الأدلة الّتي جمعتها علىٰ الأرض، لكن بلا فائدة، خمسة عشر سنة.. أكثر مِن ثمانِ أدلة بلا فائدة فلم تجِد طريقًا أمامها سِوىٰ تناول المُهدئات بهذا الكَم المجنون، هي لا تُريد سِوىٰ أنْ تعرف الحقيقة وتأخذ ابنها وتُهاجر إلىٰ أيّ دولة أجنبية بعيدًا عن زوجها الّذي أرغمتها الظروف علىٰ العيش معه.

علىٰ الجانِب الآخر في نفس الأثناء كان كريم جالسًا في غُرفته بين أوراقه وملفات قضاياه.

قرر كريم التواصل مع أحد الأرقام المُرفقة بالإعلان الّذي قام بحفظه ليلة أمس، قام بالتواصل عبر محادثة هاتفية مع الرقم الّذي أرفق الإعلان استطاع مِن خِلالها تحديد موعِد لمُقابلة السمسار المسئول عن بيع وشِراء الأطفال.

صباح السابع عشر مِن فبراير، قام كريم مُسرعًا وارتدىٰ ملابسه وذهب إلىٰ المحكمة؛ كي يُنهي عمله.

أما عن نادرة الّتي أثارت الجدل حولها كَونها امرأة قوية استطاعت بعد موت زوجها أن تصمد بهذا الشكل العجيب وكأن شيئًا لم يكُن، فهي بعد انتهاء أيام العزاء مُباشرةً بدأت تُمارس حياتها بالشكل الطبيعي مما أثبت للجميع أنَّها امرأة قوية وصبورة، لقد كان الأمر عاديًا بالنسبة للجميع عدا كريم الّذي ما زال شعوره بالشك تجاهها يجتاح قلبه، فهو بالرغم مِن انشغاله الدائم إلا أنَّه يُحاول بقدر الإمكان الإلمام بجميع خطواتها اليومية، المُثير للشك حقًا هو رؤيته لجارتهم والدة أمل تتردد علىٰ بيت نادرة كثيرًا.. أحيانًا تصطحب معها أمل وأحيانًا لا؛ مِما أثار شكوكه تجاه جارتهم أيضًا.

في بيت عائلة البحيري...

تجهزت زينة وجهزت رياض لطقوس الزار الجديد الّتي ستُقام في تمام الثانية والربع ظهرًا قبل وصول عمار مِن العمل، نزلت زينة وجلست تنتظر العجوز بشاير الّتي تأخرت عن موعدها نصف ساعة.

بعد مرور دقائق فُتح الباب لتدخل مِن خِلاله امرأة معصوب رأسها بمنديل أسود فوق الغطاء الّذي يُغطي وجهها، تستند علىٰ جِذع الشجرة الّتي تحمله بيدها دومًا، لكن هذه المرّة لم تكُن تُغطي وجهها كامِلًا بغطاء شعرها الأسود الشِبه شفاف، كانت شفتاها وتِلك الدقة الخضراء المرسومة علىٰ ذقنها هذه المرّة تظهر مِن أسفل الغطاء.

دلفت بقدمها إلىٰ الداخِل ومِن ثم سلمت علىٰ الجِدة سُعاد وبدأت بإشعال البخور والدُخان، لفتت وجهها نحو زينة الّتي تقف مُشمئزة مِن رائحة ثياب العجوز ومدت يدها وأخذت مِنها رياض وقامت بتمتمة كلمات غير مفهومة كما فعلت المرّة السابِقة، لكِن زينة لم تستطع تفسير ما كانت تهمس بِه رغم محاولاتها وكامِل تركيزها الّذي أعارته إياها، وضعت له أيضًا مِن ذاك المشروب الّذي أعطته مِنه سابِقًا.. الشيء الجديد الّذي أضافته هذه المرّة هي تِلك النُقطة الحمراء الّتي وضعتها علىٰ جبينه قائلة "ليحفظك الإله مِن شر

الحاسدين" وأخذت المال مِن الجِدة سُعاد وربطت حقيبتها وذهبت، أدارت ظهرها مُتوجهة نحو الباب وقبل أنْ تدلف بقدمها للخارج رمقت زينة بنظرة مُرعبة اهتز علىٰ أثرها قاع قلبها ووقفت مُتجمدة تبتلع ريقها بصعوبة بالغة.

☆☆☆

مَرَّ النهار مَرْ السنين علىٰ كريم الّذي كان مُتعطشًا للإمساك بخيط يُساعِده علىٰ فتح ملف قضية رقم ٥٠٧ أحوال شخصية مرّة أخرىٰ، دقت الساعة السادسة مساءً.. نزل كريم وصعد بسيارة الأجرة مُتجهًا إلىٰ العنوان الّذي وصفه له السمسار ليلة أمس.

وصل كريم إلىٰ المكان الموجود بالورقة.. كانت الشوارع تنبعث مِنها روائح كريهة، ظل يدخل ويخرج مِن شوارِع جانبية وأماكِن مهجورة إلىٰ أنْ وصل إلىٰ غُرفة مصنوعة مِن الخشب، مُنعزلة عن العالم تقريبًا، تَدخلها نسمات الهواء بالكاد، ضوئها خافت جدًّا لا يُمكن لضعيفي النظر الرؤية خلالها بوضوح أو تكاد تنعدم الرؤية بالنسبة لهم تمامًا، طرق كريم الباب وما هي إلا لحظات حتىٰ فوجئ برجل قصير القامة، غليظ الصوت، ثمين الجسد يرتدي جلبابًا مُبرقش يُداعب شاربه وعيناه اليُسرىٰ شِبه مُغلقة، في بادئ الأمر اعتقد كريم أنَّه لديه مُشكلة بعينيه لكن فيما بعد أدرك أنَّها مُجرد عادة مُعتاد علىٰ فِعلها.

تنهد كريم وقال:

_السلام عليكم.. أنا الصحفي كريم الّذي تحدث معك ليلة أمس.

هز رأسه قائِلًا:

_أهلًا.. أهلًا يا سيد (ثم أشار بيده نحو الداخِل وقال)

تفضل.

دلف كريم إلى الداخِل ثم جلس علىٰ الكُرسيّ المصنوع مِن البلاستيك وبدأ يَفحص بنظره جميع أركان الغُرفة الّتي احتوت علىٰ سرير واحد يسع فردًا واحِد وبوتاجاز مُسطح وثلاجة صغيرة وكم غرض مِن الأغراض اللازمة للطبخ والغسيل والتنظيف، ما لفت نظره وأثار دهشته هو ذاك المكتب الموضوع عليه كم كبير مِن الكُتب الطبية والأوراق.

لاحظ الرجل عين كريم المُصوبة علىٰ الكُتب فبادر بالحديث قائلًا:

_ لا تتعجب...

وجهه كريم نظره الّذي كان مصوبًا علىٰ الكُتب إلىٰ الرجل قائِلًا:

_ماذا؟

ابتسم الرجل ابتسامة خفيفة وقال:

_كُلّ هذا الشرود الّذي يبدو علىٰ ملامِحك؛ بسبب هذه الكُتب؟

لم ينتظر أنْ يُجيبه كريم وأكمل وهو يضع يده بجيبه لِيُخرِج هويته قائِلًا:

_أنا طلعت خالد منصور، حاصِل علىٰ معهد تمريض خاص وأعمل بمجال التمريض مُنذ أكثر من تسع سنوات؛ لِذلك كُلّ هذه الكُتب أنا جمعتها لأتعلم.

هزَ كريم رأسه ومَد يده وأخذ كوب الشاي الّذي أعده له طلعت وقال:

_كما قُلت لك ليلة أمس أريد مُساعدتك في مقالاتي القادمة عن بيع الأطفال وشرائهم وهكذا مقابِل أيّ مبلغ ستطلبه، ولا تخف أنا عند وعدي لن أذكر اسمك ولا اسم أيّ أحد يعمل معك.

هزَ الرجل رأسه موافِقًا وقال:

_سأساعِدك لا تقلق.

تعجب كريم كثيرًا مِن ردة فِعله فقام بتوجيه سؤاله علىٰ الفور قائِلًا:

_بهذه السهولة؟

تنهد الرجل وقال:

ـيا سيد إنَّ الفقر الّذي أُعانيه أنا وغيري أودىٰ بِنا إلىٰ العمل في مِثل هذه الأشياء البشعة لا أريد أنْ يُعانيه أحد غيري، وهذه الأيام الناس تسمع لحديث أمثالك وتصدق كلامهم الزائف وكأنه مُقدس؛ لِذلك سأساعِدك.

بدت علىٰ ملامح كريم الريبة والشك وبدأت أفكاره تذهب بِه بعيدًا ثم قال:

ـوما الّذي يضمن لي ألا تُعطيني معلومات خاطئة، أو رُبّما تتخلص مني وأنا ببيتك الآن.

ضحك الرجل ضحكة مشوبة باليأس قائِلًا:

ـأنا لستُ مجرمًا يا سيد.. لا تلومني علىٰ ما أفعل، بل لُم الفقر الّذي جعلني أضحي بأيّ شيء مُقابِل لُقيمات الخُبز الّتي سأتناولها وأذهب للنوم هاربًا مِن هذا العالم المُخيف.

صمت كريم لبُرهة ثم قال:

ـألوم الفقر؟! الفقر الّذي تُعلق علىٰ شماعته ما تفعله لم يَقُل لكَ بأن تحرم الأم مِن ولدها والأب مِن ابنته وتقوم ببيعهم لأناس آخرين.

هزَ الرجل رأسه نافيًا وهو يقول:

_أنا لا أحرم أحد مِن ولده، أنا فقط أبحث عن نِساء لتأجير أرحامهِن مِن أجل المال.

حدقت عين كريم وقال بسرعة البرق:

_ماذا تقول؟

"الفصل العاشر"

"في القرنِ الحادي والعشرين، أو ما يُعرف بعصر التكنولوجيا بات كُلّ شيء مُباح وممكِن الحدوث حتىٰ وإن كان هذا إتجارًا بالبشر"

هذه المقولة هي أول خطط كريم لكشف الحقيقة.

الثامِن عشر مِن فبراير، الرابعة عصرًا نُشِر علىٰ أحد صفحات التواصل الاجتماعي جُملة اهتز علىٰ أثرها الكثيرين، أثارت أذهان وتساؤلات الجميع.

"في القرنِ الحادي والعشرين، أو ما يُعرف بعصر التكنولوجيا بات كُلّ شيء مُباح وممكِن الحدوث حتىٰ وإن كان هذا إتجارًا بالبشر".

تساءل الكثير عن معناها، مِنهم مَن أثارت الجملة ذهنه ومِنهم مَن أثارت مشاعره وعاطفته، بعدها بنصف ساعة تقريبًا نُشِرَ إعلانًا علىٰ المجموعات الخاصة بسماسرة التجارة بالبشرة أثار كريم بِه شكوك البعض كان هذا الإعلان ينُص علىٰ الآتي....

" هُناك رجل وسيدة يُريدان أنْ يُصبحوا أبًا وأمًا مَن تُريد استئجار رحمها لمدة تسعة أشهر مُقابِل مأتي ألف جنية عليها الاتصال علىٰ أحد الأرقام الآتية... "

وأرفق ثلاثة أرقام اشتراها بدون بطاقة مِن أحد الباعة المُتجولين بمحطات القطارات.

التاسع عشر مِن فبراير، تحديدًا الساعة الواحدة وثلاث وعشرون دقيقة صباحًا وقعت نادرة في شِباك كريم كما خطط.

عودة للماضي...

السابع عشر مِن فبراير، الساعة السابعة وخمس دقائق في غُرفة "طلعت".

كانت الصدمة الّتي تلقاها كريم كبيرة علىٰ أثرها عُقِد لِسانه لِمدة تُقارب مِن ثلاث دقائق، كان وجهه يَشُع نارًا، ظلت كلمات طلعت يدوي صداها في أُذنه؛ فهو لم يتوقع أبدًا أن تصل التجارة الغير مشروعة إلىٰ هذا الكَم مِن البشاعة وتدخل في المُحرمات والكبائر، هو كان يظن أنَّ نادرة تزوجت مِن عمار زواجًا غير شرعيًا وأنجبت مِنه طفلهما أو رُبّما حدث فعلًا ما روته نادرة أنّها باعت ابنها مُقابِل المال؛ لِذلك أخذ هذه الخطوة الجريئة وقام بزيارة طلعت، لم يَخطُر ببالهِ يومًا أنَّ ما حدث كان له علاقة بِمثلِ هذه الأمور، كان يود فقط أن يفتح القضية مِن جديد لكشف جرائم الإتجار بالأطفال وبيعهم، لكِن خططه الآن أصبحت بلا فائدة فقد تغير مسار القضية تمامًا، أصبحت القضية ليست مُتعلقة بـنادرة فقط بل أصبحت قضية مُجتمع كامِل أعمته الأموال وطمست علىٰ بصره وبصيرته.

رمق كريم الرجل بنظرته الحادة كنظرات الصقر وقال:

_أخبرني بكُلِّ ما تعرفه.

تنهد طَلْعَت ثم قال:

ـسأُخبِرك بكُلِّ شيء.

عودة للحاضر....

الواحدة وخمس وعشرون دقيقة فتح كريم رسالة واردة مِن أحد الصفحات الشخصية كان محتواها "أريد معرفة التفاصيل"

تنهد كريم بابتسامة ثم أجاب "لمعرفة التفاصيل كاملة يُمكننا المُقابلة غدًا في هذا العنوان.... الساعة السابعة مساءً"

وقام بإرفاق عنوان طلْعت.

لم يكُن كريم أبدًا مُتخيلًا أنَّ حُبه وشغفه بمهنته سيجعلونه يُخاطِر مِثل هذه المُخاطرة، حُبه للحق وأخلاقه الّتي تُحتم عليه عدم السكوت علىٰ شيء مِثل هذا رُبّما سيجعلونه يفقد الكثير، لكن شجاعته وحُبه لِنُصرة الحق الّذي أقسم أمام الله أنَّه سيظل يُحارب لأجله حتىٰ آخر نفس يلفظه كان أقوىٰ بكثير مِن أنْ يجعل مجالًا للخوف يتسرب إلىٰ قلبه.

الثانية وربع صباحًا قطع غفوتها صوت صُراخ هزَ أركان المكان، فُزِعَت زينة واستيقظت تتنفس بصعوبة، يسيلُ مِنها العرق ويَصُب صبًا، ابتلعت ريقها بصعوبة وحاولت أن تستجمع قواها الّتي فقدتها وقامت تتمشى بخطواتٍ مُتثاقِلة في الغُرفة تبحث عن مصدر الصوت، لكِنها لم تَجِد شيء، أدارت ظهرها للباب وتوجهت إلىٰ السرير استوقفها هذا الصوت ثانيًا، شُلت حركتها وبرزت عينها ومِن ثم قاومت ثانيًا وتوجهت خارج الغُرفة، سارت ببطء والرعب ينزف مِن أطرافها، شاهدت تِلك الأضواء الخافتة نهاية الطُرقة، صوبت نظرها إلىٰ هُناك وسارت ببطء إلىٰ أن وقفت أمام غُرفة الجِدة سُعاد، رأت مِن خِلال الزُجاج الموجود بالباب خيالًا علىٰ الحائط، مدت يدها وفتحت الباب دون أن تطرقه فإذا بالسقف ينهار وبدأت أصوات الصُراخ تتعالىٰ مِن تحت الأرض، أطلقت مدافع صوتها تصرخ ومِن ثم فجأة انتفضت مِن سريرها قائلة بداخِلها "أعوذ بالله مِن الشيطان الرجيم".

نظرت زينة ودققت النظر فيما حولها باستغراب، ولكِنها سُرعان ما أدركت أنَّها كانت تحلم، مدت يدها وصبت كوب ماء وأخذت تشرب كالذي وجد بئر ماء في صحراء قاحِلة، أغمضت عيناها وأطلقت زفيرًا وفتحتها مرّة أخرىٰ ثم قامت واستندت علىٰ سرير رياض الموضوع بجانب سريرها، نظرت إليه فوجدته نائمًا، ابتسمت ثم قالت في نفسها" أنتَ وحدك مَن

استطعت كسر وحدتي واخترقت قلبي، لم يخترق قلبي رجلًا مِن قبل إلا أبي ولم أعرف عن الحُب شيء كباقي الفتيات، ولم يكُن مكتوبًا بقدري أن أُحب.. حتىٰ الشخص الّذي تزوجته لم أحبه يومًا.. كان زواجًا مِن أجلِ المال فقط، لكِنك الوحيد يا ولدي مَن أشعرني بأنَّ للحياة طعمًا وأنَّ القدر سيُهديك فرصة في يومٍ ما؛ كي تعيش"

ثم جلست علىٰ سريرها تنزف الأفكار مِن كريمتها والأسئلة تجتاح عقلها حول ما يحدُث لها هذه الفترة، ولكي توقف هذا النزيف وضعت الوسادة علىٰ أذنها ودفنت رأسها بوسادة أخرىٰ وغرقت في النوم.

صباح اليوم التالي، العشرون مِن فبراير قرر كريم ألا يذهب إلىٰ العمل ويقضي اليوم مع والدته في البيت، فاق كريم حوالي الساعة التاسعة صباحًا، توضأ وصلىٰ الصُبح ثم خرج إلىٰ الشُرفة؛ كي يستنشق هواءً نقيًا، أثناء وقوفه في الشُرفة تذكر جارتهم أم أمل الّتي تتردد كثيرًا علىٰ بيت نادرة، لكنه عجز عن معرفة السبب وحينما أدار ظهره متوجهًا إلىٰ صالة المنزل لفت انتباه لثاني مرّة اليد البُنية غريبة الجلد الموضوعة علىٰ السور، عاد بنظره بسرعة ودقق النظر حتىٰ استطاع معرفة ملامحها.. إنها أمل جارتهم.. يدها محروقة وجلدها مُشوه تمامًا، نظر نحوها بتمعن حتىٰ استطاع أن يحفظ شكل يدها، لكِنه لم

يكُن يعرف أنَّها تضع كلّ هذه المساحيق التجميلية؛ كي تُخفي هذه العلامات الموجود أثرها علىٰ وجهها إلىٰ اليوم، كان يحسبها مِمَن يضعن المساحيق للتجميل ولفت الانتباه تجاههن، لكنه أدرك أنَّه كان مُخطئًا حينما ظن ذلك.

دخل كريم إلىٰ الصالة.. كانت والدته تجلس علىٰ الأريكة بيدها أعواد الملوخية الخضراء تُجهزها لتُعِد له الغداء، تنحنح كريم وقال صائحًا وهو يرفع يديها نحو السماء:

_رائحة الأكل شهية، أوه يا لها مِن رائحة نفاذة تنبعث مِن مطبخ الطباخ العالمي "أم كريم"!

نظرت له بابتسامة ثم قالت:

_جبر الله خاطرك يا ولدي، لم تعترض منذ صِغرك علىٰ أيّ شيء أعددته لك، دائمًا ترىٰ الطعام ولو كان لا يؤكل أنَّه جيّد، جمل الله أقدارك وزينها بالنجاح دومًا.

نظر لها كريم بابتسامة ثم قَبَل يديها وقال:

_آمين، اجلسي أنتِ أنا سأُكمِل باقي الغداء.

ثم قام وتوجه إلىٰ المطبخ؛ كي يُكمل الغداء عن والدته.

انقضى اليوم وحينما دقت الساعة السادسة مساءً شرع كريم يستعد للخروج، ارتدىٰ ملابسه ونزل الدرج وتوجه إلىٰ غُرفة طلعت.

الساعة السابعة وثلاث دقائق كان صوت طرقات الباب تُظهِر مدىٰ لهفة الطارق، فتح طلعت الباب ليجد امرأة معصوب رأسها بمنديل أسود مُتقطِع بالي تقف أمامه، رحب بها ثم دلفت بقدميها السوداء إلىٰ الداخِل.

كان كريم واقِفًا خلف الستارة الموجودة علىٰ النافِذة فوق المكتب، شرعت نادرة بالحديث قائلة:

_أريد التفاصيل بسرعة؛ كي لا أتأخر.

نظر إليها طلعت مُتعجبًا مِن حماسها ثم قال:

_اهدأي قليلًا.. أنتِ تعرفين مدىٰ خطورة الأمر؟

رمقته بنظرة غضب ثم قالت بعصبية:

_قُمت بعمل هذا الأمر ثلاث مرّات مِن قبل، هيا اعطني التفاصيل.

لم تُكمِل حديثها حتىٰ لكمتها صدمة رؤية كريم أمامها لكمة أفقدتها النطق وأوقفت الكلام بين شفتيها وحدقت عينيها برعب قائلة:

_أ... أ.. أنتْ؟

"الفصل الحادي عشر"

يقول جبران خليل جبران

"إنَّ القتيل ليس بريئًا مِن جريمة القتل"

عمَّ الصمت المكان، الصدمة الّتي اجتاحت وجهها كانت كفيلة بأن تروي الحقيقة الّتي أخفتها مِن قبل، ابتلعت ريقها وأعادت سؤالها وهي تفرك يدها في توتر قائلة:

_ماذا تفعل هُنا؟

رمقها كريم بغضب قائِلًا:

_علمتُ حقيقة ما تفعلين فجئتُ لأتأكد.

ثم رفع حاجبه الأيسر وقال:

_أخبريني يا نادرة لِمَ رياض تحديدًا الّذي تُريديه؟ مِنذ دقائق اعترفتِ أنَّكِ قُمتِ بتأجير رحِمِك مرتين آخرتين، فَلِمَ رياض تحديدًا الّذي تُريدينه.

أجابته بعنف قائلة:

_ستعرف قريبًا لِمَ رياض تحديدًا.

اشتد بينهما النقاش وانتهى بجملة نادرة الّتي قالتها "إن استطعت أنْ تُثبِت شيئًا اثبته" وتركته وذهبت.

صباح الحادي وعشرون مِن فبراير نُشِر مقالًا تحت عنوان "الإتجار بالبشر" علىٰ أحد صفحات التواصل الاجتماعي هزَ أرجاء القاهرة بأكملها وكان كالآتي...

" منذُ الصِغَر تتردد علىٰ مسامعنا كلمة "سمسار" عرفناها في التجارة.. في البيع والشراء، في كثير مِن الأمور مِثل هذه، لكن اليوم دعني عزيزي القارئ بأن أُضيف لمُصطلحاتك مُصطلح جديد وهو (سماسرة الإتجار بالبشر) في الآونة الأخيرة ومنذ سنتان تقريبًا سمعنا عن قضية الطبيب الشهير الّذي قتل زوجته البريئة؛ كي لا تكشف جرائمه وتلاعبه بأرواح البشر والإتجار بهم، قضية حمزة الشهيرة بقضية "إراتوستنيس" والّذي اعترف قبل ساعات مِن انتحاره برسالة انتحار أثارت الجدل بعد أنْ كشف عن نفسه سِتار الطِب الّذي كان مُتخفي خلفه وكتب قائِلًا (استغللتُ اللاجئين الفقراء لحاجتهم للمال وجعلتهم مخزنًا لأعضاء الطبقات العُليا في المُجتمع) وهُنا كشف عن تجارته بأعضاء الفقراء، واليوم نأتي بطبيب جديد سار علىٰ نهج حمزة ولكن بطريقة مُختلفة جعلته يلقىٰ عقابه ولكن تارِكًا خلفه أيادي مُتخفية تتلاعب بأرواح البشر أو رُبّما تتلاعب بحاجتهم للمال، لن نكشف عن اسمه اليوم ولكن أعدكم في القريب العاجِل سيتصدر اسمه جميع الصُحفُ والفضائيات، هذا ليس موضوعنا اليوم؛ موضوعنا عن سماسرة الإتجار بالبشر الّذين

استغلوا حاجة الفقراء للمال وأوقعوهم بِشباك أعمال غير قانونية، هم مَن يستدرجن الفتيات لتأجير أرحامهن مُقابل مبالغ تتراوح ما بين مائة وخمسون ألفًا إلىٰ مأتي ألف جنية، لا تتعجب عزيزي القارئ نعم إنَّها تجارة الأرحام فنحن في حربٍ لدعس الإنسانية والإتجار بالبشر تحت عمليات غير مشروعة حرمها الدين والقانون.

والآن استعد لمقال آخر لكشف حقيقة أخرىٰ"

~~مجهول~~

بعد نصف ساعة تقريبًا مِن نشر المقال حاز المقال علىٰ كثير مِن التعليقات حول مَن الفاعِل؟ لكن كان النصيب الأكبر لعدم استيعاب البعض لِمَ هو مكتوب فالقانون المصري ينُص تشريعات حول تحريم مِثل هذه الأمور ولقد أفتىٰ الأزهر والكنائس وحرموا هذا.

الساعة الرابعة عصرًا كانت المواجهة صادمة بين كريم وسيد حسنين محمد الأسيوطي المُتهم بقضية موت الطبيب "حسام" زوج الطبيبة الشهيرة "سهام القاضي" لم يكُن متوقع أبدًا لكريم بأن يُخبره طلعت ليلة أمس عن الطبيب حسام الّذي اشتهر بإجراء عمليات غير قانونية أحد أهم هذه العمليات

زراعة الأنسجة وأطفال الأنابيب والإتجار بأرحام الفتيات لحسابه الخاص، كانت صدمة كريم ليست بهينة، لِكن شكه حول موته المُفاجئ جعله يبحث مِن جديد فـرُبّما نظرة السيدة سهام له يوم المُحاكمة لم تكُن نظرة عابرة هو كان يشعر بأن خلف هذه النظرات تختبئ الحقيقة فما حدث للطبيب حسام ليس بمحض الصُدفة إنما هو جريمة بالفعل ونجا مِنها الفاعِل بسبب التقرير الطبي الّذي حصل عليه مِن المعمل الجنائي؛ لِذلك أجرىٰ كريم مكالمة هاتفية ليلة أمس طلب فيها مُقابلة سيد الأسيوطي الّذي كان يعمل مُمرضًا مع الطبيب مُنذ أكثر مِن عشر سنوات.

كان التوتر والقلق يبدوان علىٰ وجه سيد، فرقعة أصابعه.. فركه بيده، نظرات عينه ولغة جسده.. كُلّ هذه الأشياء أكدت لكريم شكوكه، لكن كريم كعادته لا يُحب مماطلة الأمور والمُجاملات الّتي قد تُفقد المُقابلة بريقها، كان يمقط هذه الأشياء الّتي يتبعها البشر في فتح الأحاديث؛ لذلك دفعته طبيعته بأن يبدأ حديثه بسرعة ودون مقدمات قائِلًا:

_أخبرني يا سيد عن سبب خِلافك مع الطبيب حسام قبل وفاته؟

احمر وجه سيد وابتلع ريقه قائِلًا:

_أخبرتك مِن قبل يا أستاذ كريم عن السبب، ماذا حدث؟

رمقه كريم بنظرة غاضبة قائِلًا:

_أخبرني ثانيًا...

هز رأسه قائِلًا:

_حسنًا، زوجتي كانت مريضة منذ شهران تقريبًا وكلما أخبرته بِذلك؛ كي أستطيع أنْ آخذ إجازة وأقوم بالسفر لرؤيتها رفض، واليوم الّذي تشاجرنا فيه أمام المرضىٰ كان بسبب رفضه لأخذي مبلغ كسُلفة لأرسله لزوجتي لشراء الأدوية.

تنهد كريم وقال:

_أعرف ذلك وأعرف أنَّ كُلّ ما رويته كان حقيقي، لكنه نصف الحقيقة ليست الحقيقة كاملة.

أخبرني بالحقيقة كاملة؛ كي لا تتورط وهذه المرّة أعدك أنّني سأجعل المحكمة تُصدق أنَّك مَن قُمت بقتله.

(ثم رمقه بنظرة مُخيفة مشوبة بالتهديد وأكمل) مَن الّذي قتله؟

اعتلت وجه سيد ملامح التوتر والقلق وقال بصوتٍ مُتردد:

_لـ.. لا أعلم، لكني شاكك بشخص سأخبرك عنه.

قال بلهفة:

_مَن..؟

قال بتردد:

_زوجته.

صُعِق كريم أثر ما سمعه ثم قال:

_زوجته! لِماذا؟

تلعثم سيد في الحديث ثم قال:

_الطبيب حسام كان كثيرًا ما يعمل في أمور غير مشروعة كعمليات الإجهاض و....

قطع حديثه كريم قائِلًا:

_وتأجير الأرحام.

حدقت عينيه وقال مُترددًا:

_مِن أين عرفت ذلك؟

تراجع كريم للخلف وأسند ظهره على الكُرسيّ قائِلًا وهو يضع ساقًا فوق الأخرىٰ:

_لا يهمك مِن أين عرفت، المُهم أنني عرفت وسأعرف الباقي الآن.

هز سيد رأسه مؤكدًا علىٰ كلام كريم وقال:

_منذ سنة ونصف تقريبًا قام السيد حسام بعمل عملية تأجير رحم لسيدة تُدعىٰ نادرة مُقابل مئة وخمسون ألف جنية طلبها زوجها مِن المُستأجر، أخذ خمسون قبل إجراء العملية وخمسون يوم الولادة وتبقى له آخر مبلغ قدره خمسون أيضًا، بدأ الرجل يتردد كثيرًا علىٰ العيادة والمشفىٰ؛ ليأخذ باقي المبلغ، لكن كانت الأسرة المُستأجرة تُماطِل كثيرًا رغم أنَّها أسرة غنية ولكن لا أعرف ماذا حدث، مِن هُنا قرر الرجل أن يُخبر السيدة سهام بالأمر وعِندما علمت جاءت إلىٰ العيادة وهددت زوجها بأن تُخبر الشرطة بكلِّ شيء لو لم يُنهِ هذا الأمر.

وبعدها بأسبوعين تقريبًا توفىٰ السيد حسام.

كانت المُعادلة صعبة للغاية، لكن كريم بطبيعة خبرته في مِثل هذه الأمور توقع حلها بسهولة ومع ذلك قرر أن يتأكد مِن شكوكه ويذهب إلىٰ بيت الطبيب حسام؛ لمُقابلة السيدة سهام.

☆☆☆

لم يكُن بمحض الصُدفة أيضًا تواجد الجِدة سُعاد خلف المنزل في مِثل هذه الساعة المُتأخرة مِن الليل، فقد بدأت تُثار شكوك زينة تجاه الجِدة عِندما رأتها للمرّة الثانية أثناء ذهابها لأخذ صندوق الدلائل الّذي خبأته بالغُرفة الخلفية للمنزل، لكِن هذه المرّة قررت زينة أن تتبع الجِدة وتعرف ما الّذي تفعله هناك.

ارتدت زينة شالًا أسود وذهبت خلف الجِدة لكِن لسوء حظها أنَّها تعثرت بأحد الحِبال المُلقاة بحديقة المنزل، سقطت زينة علىٰ الأرض وبدأت تتألم أثر التواء قدمها، لكِنها قاومت وقامت تركض نحو الغُرفة وعِندما وصلت فوجئت بالجِدة سُعاد جالسة علىٰ الكُرسيّ المُتحرك وأمامها امرأة مُنحنية الظهر تستند علىٰ عصاه ورأسها معصوب بمنديل أسود بيدها طفل صغير وضعته علىٰ قدم الجِدة قائلة "باركيه يا ستنا" حدقت بعينيها قائلة بصوتٍ خفيض "بشاير!".

"الفصل الثاني عشر"

لم يكُن النظر لنصف الكوب الممتلئ كافيًا لعدم لإهمال الفراغ الموجود.. هكذا الأدلة غير المُكتملة تجعلنا نُفكر في الأشياء المفقودة أكثر مِن الأشياء الّتي تم العثور عليها.

كانت الصدمة كالصاعقة علىٰ زينة حينما دققت النظر أمامها وتأكدت مِن ملامِح العجوز "بشاير" كانت الأسئلة تُمطِر علىٰ عقل زينة حول ما تفعله الجِدة مع بشاير بهذا الوقت المُتأخِر.

شنت الأفكار حربًا داخِل رأسِها.. لم تكُن هناك أيّ إجابة مُرضية لهذا الكَم الهائل مِن التساؤلات فقد بلغ فضولها الحلقوم ونفذ صبرها أيضًا، كلّ ليلة تستيقظ علىٰ تِلك الكوابيس المُتعلِقة بالجِدة سُعاد وغُرفتها واليوم أصبحت تشك بأمر بشاير أيضًا، ازداد خوفها علىٰ ابنها بطريقة غريبة فقد أصبحت قلقة مِن الزار الّذي تُقيمه الجدة له باستمرار.. كلّ هذا ليس بمحض الصدفة، لكِنها اتخذت قرارًا سريعًا بأنْ تترك الدولة بأكملها وتأخذ ابنها وتُسافِر للخارج، لعلَّ السبب في بقائها حتىٰ الآن هو ذاك الصندوق المُخبأ بالغرفة الخلفية للمنزل، هي فقط تبحث في كُلِّ مكان عن باقي تِلك المخطوطة الواقع عليها الحِبر الّذي خطها والدها قبل وفاته، تِلك المخطوطة المفقودة هي الّتي تسببت في موت والديها، لكِن حياة ابنها كانت مهمة بالنسبة لها أكثر مِن كُلِّ هذه الأدلة، لم يعُد لتِلك الأدلة فائدة؛ لذلك قررت حرقهم.

نزعت زينة حذائها مِن قدمها وسارت تتلصص الخطوات حتىٰ لا تلفت انتباه الجدة حتىٰ تمكنت مِن التسرب إلىٰ داخِل الغُرفة، زجت بنفسها أسفل السرير القديم وأخرجت الصندوق حاملةً إياه وتوجهت إلىٰ غُرفتها.

سارت ببطء حتىٰ تمكنت مِن العودة لغُرفتها وبدأت بنثر محتويات الصندوق علىٰ أرضية الغُرفة، لكن ما استوقفها عن قرراها هو ذاك المنديل ـالفوطةـ المُلطخة بالدم، في هذه اللحظة قامت زينة بضرب رأسها بالجِدار قائلةً "كيف لم أُفكِر بها مِن قبل، كيف؟"

انتشلت المنديل ومِن ثم وضعته في حقيبة بلاستيكية وزجتها أسفل الوسادة وأغلقت الصندوق وزجت بِه أسفل سريرها، لم تُعِده هذه المرّة إلىٰ مخبأه السريّ كعادتها وغاصت في النوم.

صباح الثاني والعشرون مِن فبراير كان النصيب الأكبر مِن الصدمة للطبيبة سهام القاضي وبناتها الثلاث؛ بسبب تداول اسم زوجها الطبيب "حسام أبو المكارم إسماعيل السفطي" بين الصُحف والمجلات وانتشار الأقاويل حول فتح التحقيق في قضية قتله مرّة أخرىٰ، لم يكُن خبر إعادة فتح التحقيق مرّة أخرىٰ صادِمًا بقدر صدمة السيدة سهام بإخبار الضابط لها بإعادة تعيين

مسرح الجريمة مرّة أخرىٰ، هنا لم تستطع السيدة سهام تمالُك نفسها وخرت قواها ثم سقطت مُغشيًا عليها وتم نقلها إلىٰ المشفىٰ علىٰ الفور.

رُبّما تداول خبر دخول السيدة سهام المُفاجئ المشفىٰ كان كافيًا لإثبات ما قاله "سيد" لكريم ، لكِن كان لكريم دائمًا نظرة أخرىٰ تجاه الأمور فما أُثبِت لكريم هو أنَّ القاتل الحقيقي بنسبة سبعين بالمئة هو "عوض الله" زوج نادرة لرفضه إعطائه باقي المبلغ المُتفق عليه قبل إجراء عملية تأجير رحم نادرة، لكن أيضًا كريم إلىٰ الآن لم يحصُل علىٰ دليل يُدين عوض الله، الأمر أصبح مُعقدًا بالنسبة له فالمُتهم والمجني عليه كلاهما أموات لن يستطيع أن يوقِع القاتِل بشباكه كمان كان يفعل في جميع قضاياه مِن قبل، لكِن دائمًا للصدف والأقدار رأيٌ آخر في مِثل هذه الأمور فقد كانت الصِلة بين كريم والضابط "مُحمد مُعتز" المسئول عن قضية موت الطبيب حسام وثيقة للغاية فهما زميلان منذ أيام الدراسة مِما سَهَلَ علىٰ كريم الحصول علىٰ تقارير البصمات المرفوعة مِن أسطح مسرح الجريمة بعد إعادة تعيينها.

مساء الثالث والعشرون مِن فبراير تلقى كريم اتصالًا هاتفيًا أخبره فيه الضابط "مُحمد مُعتز" بأنَّ البصمات المرفوعة بعد إعادة تعيين مسرح الجريمة لامرأة وليست لرجل، أثبتت تقرير الطِب الشرعي تواجدها في مسرح

الجريمة قبل وقوعها بحوالي سبع وخمسون دقيقة، لكِن لسوء الحظ أنَّ البصمات كان ثلاث أصابع مِنها مشوهة لوجود حرق بأصابع المُشتبه بِها.

اعتلت الصدمة وجه كريم وقُلِبت موازين القضية مِن جديد، فظنه في عوض الله لم يكُن في محله، لكِنه سُرعان ما تذكر صلة والدة أمل بِنادرة وهنا أخذت الأمور مُنعطفًا آخر بعقله.

الثانية عشر مُنتصف الليل كانت أفكار كريم تتسابق مع عقارب الساعة فالورقة البيضاء الّتي امتلأت خطوطًا أمامه لم تكُن كافية لحل اللغز المُعقد وفك شفرة عقله، لم يتوصل كريم سِوىٰ لشيء واحد فقط؛ هو أمل.. منذُ أن أخبره الضابط محمد عن التشوهات الموجودة بالبصمات المرفوعة مِن مسرح الجريمة وهو يُكذب عينه الّتي رأت يد أمل المشوهة بدلًا مِن المرّة اثنين، لكِن شعوره بالشفقة تجاهها جعل عقله مشوبًا بالشك وعدمه، أيضًا رؤيته لوالدتها في عزاء زوج نادرة كان محلًا أكبر ليؤكد شكوكه، مِن المُمكِن جدًّا أن تكون الصِلة بينهما وثيقة دفعت نادرة لاستخدام أمل في تحقيق مرادها وتنفيذ جريمتها.

اشتعلت رأس كريم بالشكوك ودخلته الريبة تجاهها مِما دفعه لإخبار الضابط مُحمد بكلِّ شيء خاص بقضية الطبيب حسام.

التاسعة صباحًا خرج أمر مِن النيابة باستدعاء المدعوة "أمل حسنين دُنجل" وإجراء فحص لبصماتها ومُقارنتها بالبصمات الّتي وجِدت بمسرح الجريمة.

الغريب في الأمر والّذي أثار دهشة كريم هو إخبار صديقه مُحمد له بأقوال أمل حول سبب ترددها علىٰ بيت نادرة، كان ردها صادم حيث قالت بالحرف "أمي كانت تذهب للسيدة بشاير؛ بسبب تأخري في الزواج.. أخبرها الجميع أنَّ الأمر مُعلق بعمل عُقِد لي وكان يجب فكه؛ لذلك جمعتنا صِلة وثيقة بالسيدة بشاير بعدما ذهبت إليها أمي بخمسة أيام تقدم لي شخصًا وطلب الزواج مني، لكن أمي رفضته لأنه أخبرها أنّي سأسافر معه للخارج، مِن هنا صدقت أمي الحديث حول مباركتها وأعمالها الخيرية المَعروفة وعِندما توفىٰ زوج ابنتها قررت الذهاب للعزاء وقضاء الواجب"

وأكدت أنَّها لم تعرف نادرة مِن قبل هي فقط تعرف والدتها.

الساعة الرابعة عصرًا كان تقرير بصمات أمل موضوعًا علىٰ مكتب الضابط مُحمد، وبعد مطابقة بصمات أمل وجِد أن الخمس أصابع لديها مشوهين أثر حريق تعرضت له في صغرها بينما البصمات المرفوعة مِن مسرح الجريمة كان ثلاث أصابع فقط مشوهين واثنان واضحان مما أبعد الشُبهة عن أمل وقررت النيابة الإفراج عنها.

هُنا اشتد اللُغز تعقيدًا علىٰ كريم فكلّ خططته والاحتمالات الّتي وضعها باءت بالفشل رغم مجهوداته المبذولة لتفسير الأمور.

لكِنه لم ييأس فقد قرر مواصلة السير والبحث مرّة أخرىٰ فلم يتبقَ أمامه سِوىٰ احتمال واحِد فقط هو "نادرة"، هي الوحيدة الّتي لديها دوافِع لقتل الطبيب حسام، أعمت الأموال نظرها كما أعمت قلبها وجعلتها تُمارس مِثل هذه الأمور المُحرمة.

علىٰ الجانِب الآخر في تمام الساعة السابعة مساءً كانت زينة تستعد لخروجها مِن المنزل مُتجهة إلىٰ مُختبر لتحاليل الدم وبيدها تِلك الحقيبة السوداء البلاستيكية الّتي وضعت بها المنديل الّذي احتفظت بِه كُلّ هذه السنوات.

نزلت تتلصص الخطوات؛ كي لا تشعُر بوجودها الجِدة، لكِنها فوجئت حينما فتحت الباب بزوجها عمار وبيده حقيبة السفر عائدًا مِن المؤتمر الطِبي الّذي عُقِد في باريس الأسبوع الماضي.

صُعِقت زينة بسؤال عمار الّذي وجهه إليها قائِلًا:

ـإلىٰ أين أنتِ ذاهِبة؟

وقفت تفرك يدها مِن شِدة التوتر واصفر وجهها ولم تستطع أن تُعطي أيّ إشارة تُجاوب بِها علىٰ سؤال عمار، ظلت تحدق به وجسدها يرتعش مُحاوِلة إخفاء الحقيبة البلاستيكية بِشالها وتجمدت كالّذي سُكب عليه دلوًا مِن الماء البادر.

اهتزت أثر فزعتها مِن صوت عمار مكررًا سؤاله ثانيًا وهو يقول بصياح:

ـجاوبيني إلىٰ أين ذاهبة وتاركة رياض يبكي؟

انتفضت واعتلت ملامحها الدهشة ونظرت خلفها لتسمع صوت صراخ رياض يدوي بالبيت.

سحبها مِن يدها مُتجهًا إلىٰ الدرج، لكن صوت الجِدة سُعاد استوقفه وهي تقول:

ـأنا أرسلتها؛ كي تجلب لي الدواء وتجلب أيضًا نوع حليب آخر لرياض، الصغير أتم ثمان شهور لم يعُد النوع الّذي يتناوله مُناسِبًا لِسنه.

عمَّ الصمت المكان وبدأ الجميع يتبادل النظر لبعضهم البعض.

"الفصل الثالث عشر"

"أنْ تكون محاميًّا يعني أنْ تعيش كلّ الأدوار"

هكذا فعل كريم لأجل تحقيق العدالة.

وقفت زينة تنظر لعمار باشمئزاز فهي بالرغم مِن كُلِّ هذه السنوات الّتي قضتها معه منذ طفولتها فإنّها لم تستطع أن تحبه ولم تُبدِ له أيّة مشاعر، ظلت تنظر إليه وتحتد نظراتها تجاهه شيئًا فشيء؛ مما لفت انتباه الجِدة فقطعت الصمت قائلة:

_زينة!

نظرت زينة تجاه الجِدة بانتباه فأكملت الجِدة قائلة:

_هيا يا ابنتي اذهبي، رياض يبكي كثيرًا أحضري له الحليب.

هزت رأسها موافقة ومِن ثم اتجهت لغُرفتها واتجه عمار إلىٰ غُرفته.

الساعة الثانية عشر مُنتصف الليل كانت المعارك الدائرة برأس كريم عنيفة للغاية، مِن هنا قرر كريم التوجه إلىٰ بيت نادرة.

الرابع والعشرون مِن فبراير، الساعة التاسعة صباحًا نزل كريم بعد أنْ قَبَلَ يد والدته وركب سيارة الأجرة مُتوجهًا إلىٰ بيت نادرة.

بعد حوالي ساعة إلا رُبع قد وصل كريم إلىٰ ذاك الحيّ الشعبيّ القديم، دقائق وطرق باب منزل نادرة بعد أن راقبها وعلم بخروجها متوجهة لمنزل أحد الأثرياء لتُرضع لهم صغيرهم.

تنقلت بخطواتٍ مُتثاقلة إلىٰ أن وصلت وفتحت الباب، نظرت له باستغراب ومِن ثم قالت:

_مَن أنتْ؟

تنهد كريم ثم قال:

_أنا الصحفي كريم ، أعمل بجريدة كبيرة في القاهرة وأردت أن آخذ بعض معلومات عن شخصية مهمة لأكتب عنه مقالًا.

نظرت إليه في شكٍ وقلق ثم قالت:

_وما شأني أنا بهذا الموضوع؟

قال بابتسامة:

_الكثير قد أخبرني عنكِ وعن قدرتِك الفائقة في معرفة خبايا الأمور؛ لذلك جئت لأطلب مُساعدتك بالمقابل الّذي تطلبيه.

نظرت إليه وأمعنت النظر قائلة وهي تمد يدها نحو الداخِل:

_تفضل.

دلف كريم للداخِل ثم جلس على الأريكة الخشبية قائلًا: _لا تقلقي لن أذكر اسمك في أيّ شيء مما سأكتبه.

هزت رأسها وقالت:

_أعلم ذلك، قُل ماذا تُريد أن تعرف وعن مَن؟

اعتدل كريم في جِلسته قائلًا:

_عن طبيب اسمه حمزة توفى منذ سنة تقريبًا، كان طبيبًا مُهمًا جدًّا واكتشفوا تجارته في الأعضاء.. أريد كشف حقائق عن حياته مِن جديد، تعرفيه؟

هزت رأسها نافية وقالت:

_سنة! عجيب لم أسمع عنه مِن قبل.

رفع حاجبه الأيسر مُتعجبًا وهو يقول:

_عجيب أمرِك أنتِ كيف لامرأة سمعت عنها كُلّ هذا لا تعرف طبيبًا مِثل حمزة؟

أراح ظهره إلىٰ الخلف ثم قال وهو يُخرِج جريدةً مِن حقيبة بيده:

_هذه الجريدة بِها مقالات وأخبار عنه سأتركها لكِ وأعود في وقتٍ لاحِق رُبّما تسألين عنه أحد مِن أولادِك ويُخبِرك عن الأخبار أو تتطلعين أنتِ بقدرتِك الفائقة وتعريفين.

هزت رأسها موافقة ثم قالت:

_حسنًا، مُر غدًا في نفس الموعِد وسيكون كُلّ شيءٍ جاهِز، سأجعل ابنتي نادرة تقرأه لي.

هز كريم رأسه وقال بابتسامة خفيفة:

_حسنًا، أستأذِنك...

وخرج مُتوجِهًا إلىٰ قِسم الشُرطة ليُخبر الضابط "مُحمد معتز" بما حدث.

زحف النهار ببطء علىٰ الجميع، علىٰ كريم الّذي ينتظر الغد بفارِغ الصبر وعلىٰ زينة الّتي تنتظر الغد وذهاب عمار إلىٰ الصعيد لزيارة أقاربه.

الساعة الحادية عشر مساءً كان عمار يستعد للسفر غدًا بعد أنْ أَعدَ حقيبته وجلس علىٰ الكُرسيّ الهزاز أمام القمر الّذي يُرخي ضوئه علىٰ نافذة غُرفته وغرق في تفكيره ثم تذكر...

عودة للماضي....

_سيد عمار يؤسفني أنْ أُخبِرك بهذا لكِنني مُضطر.

دُهِشَ عمار لِمَ سمعه ثم قال والدهشة تعلو ملامحه:

_ماذا؟ أهُناك مكروه أصاب زينة؟

أجاب الطبيب بلهفة:

_لا، اطمئن السيدة زينة بخير، لكِن للأسف رحم السيدة زينة غير مُعَد لحمل طفل بِداخِله، لديها مشاكِل بالرحم ستجعل مِن الصعب الإنجاب.

صُعِق عمار بالخبر وتجمد بمكانه ولم يستطع الحِراك ثم قال بصوتٍ خفيض:

_ماذا تقول أنتْ؟

تنهد الطبيب وقال بيأس:

_للأسف كنتُ مضطرًا لإخبارك الحقيقة، خمس سنوات نحاول بالأدوية، لكِن للأسف ليست هناك حلول أخرىٰ لهذه المُشكلة.

أصابت عمار في هذه اللحظة نوبته النفسية الّذي يُعاني مِنها وقام بركل الكرسيّ الّذي أمامه وقال بعصبية مُفرطة:

_ماذا تقول أنتْ؟ كيف تقول هذا، زينة حلمها أنْ تُصبِح أم وأنا أحيا في هذا العالم لتحقيق أحلام زينة فقط.

عليك أن تجد حلًا.

قال الطبيب في توتر:

_اهدأ يا سيد عمار، سنجِد حلًا، اهدأ.

جلس عمار وعيناه تشعُ نارًا وقال وهو يدق بيده علىٰ المكتب الخشبيّ:

_اوجد حلًا الآن...

ابتلع الطبيب ريقه وأطلق زفيرًا وتنهد قائِلًا:

_تبني، يمكنكم تبني طفل.

نظر إليه بغضب وقال:

_أريد ولدًا مِن زينة.

تنهد وقام واقِفًا وبيده قلم جاف يُحركه بين أصابعه ثم قال:

_لا يوجد سوىٰ حل واحد.

قال عمار بلهفة:

_ما هو؟

صمت قليلًا ثم أجاب قائِلًا:

_تأجير رحم امرأة أخرىٰ نزرع بيه بويضات السيدة زينة.

عودة للحاضر....

فتح عمار عينيه وهو يتنهد قائِلًا وينظر إلىٰ صورة زينة المُعلقة علىٰ حائط غرفته:

ـبحثتُ عنكِ في جميع النساء اللّاتي عرفتهن؛ كي أنساكِ.. يبدو أنَّ لا مفر منكِ يا زينة، والعجيب في الأمر رغم كلّ ما فعلته لأكسب حُبِك لا زِلتِ تبخلين عليَّ حتىٰ بنظرة تُطفئ لهيب الانتظار المُشتعل داخِل قلبي.

ثم تنهد وأطلق زفيرًا وهو يمسح بيده علىٰ وجههِ وراح غارقًا في النوم بعد ذكريات طويلة تذكرها وهو يُقلِب في صندوق صوره مع زينة منذ طفولتهم.

صباح الخامِس والعشرون مِن فبراير استيقظ عمار؛ ليُسافِر إلىٰ صعيد مِصر زائِرًا لأقارب والدته وقبل أن يذهب دق باب غُرفة زينة؛ كي يطمئن عليها، لكِنها لم تستيقظ علىٰ صوتِ طرقاته.. كانت غارقة في النوم، مدَ عمار يده وضغط علىٰ المِقبض ودلف إلىٰ الداخِل، تنهد عمار بغضب عِندما رأىٰ زينة تسند رأسها علىٰ سرير رياض وغارقة في النوم، فهو يزداد غيرة كلما رأىٰ حُب زينة المُفرط لرياض، فمنذ أن ولِدَ رياض أصبحت زينة بعيدة عنه أكثر مِن قبل، هي بالفعل بعيدة لكِنها الأمر ازداد سوءًا عن ذي قبل.

سار عمار بخطواتٍ هادئة نحو زينة وحملها برفق ووضعها في سريرها ومِن ثم خرج مِن الغُرفة وسحب حقيبته ونزل علىٰ الدرج.

عندما دقت الساعة التاسعة صباحًا كان كريم واقِفًا أمام منزل العجوز بشاير مُنتظرًا خروج نادرة.

دقت التاسعة وثلاث عشر دقيقة عندما خرجت نادرة متوجهة إلىٰ عملها.. سار كريم مُسرِعًا وطرق الباب الخشبيّ لتفتح له العجوز بشاير قائِلة:

_دقيق في مواعيدك أنتَ يا ولدي.

ثم تنهدت وأخذت نفسًا عميقًا وقالت وهي تُشير بيدها نحو الداخِل:

_تفضل يا ولدي.

دلف كريم إلىٰ الداخِل وجلس في نفس المكان الّذي جلس بِه المرّة الماضية.

ألقى بعينيه اليُمنىٰ علىٰ الأريكة الموجودة بجانبه ثم أعاد النظر إلىٰ العجوز بشاير الّتي كانت تجلس أمامه قائِلًا:

_عرفتيه؟

هزت رأسها وهي تقول بتفاخر:

_وهل يخفىٰ عن بشاير خبر؟ نعم عرفته...

هز كريم رأسه قائلًا:

_أخبريني ما الّذي كان يفعله الطبيب حمزة ولم تكشف الصحافة عنه بعد؟

اعتدلت في جِلستها وقالت بصوتها الّذي يُشبه الضفدع:

_الطبيب حمزة كان يذهب لشيخ يُدعىٰ كمال.. مات مُنذ ثلاث شهور تقريبًا.. كان يذهب إليه في استشارات عن الجن والعفاريت وليعوذُ بالله (اعتلت ملامحها علامات الاشمئزاز وأكملت وهو تُشاور بيدها يمينًا ويسارًا) كان رجل سيء للغاية.

نظر إليها كريم مُتعجبًا مِن رداء البراءة الّتي تتخفىٰ خلفه، فهو يعرف جيّدًا عن تِلك الأوراق الّتي تخط بها كلامًا غير مفهوم لتوهم الناس بأنَّها ستقضي لهم حوائجهم.

أخذ كريم نفسًا عميقًا وقال:

_رائع، كيف عرفتِ كلّ هذا في ليلة واحدة، كلّ هذا بسبب الجريدة الّتي تركتها لكِ؟

نظرت إليه نظرة حادة وقالت وهي تُشاور بيدها نحو الأريكة:

ـجريدة! أنتَ مسكينٌ يا ولدي تعتقد أن هذه الورقة أو هذا المقال الصغير الّذي كُتِبَ عنه هو ما جعلني أعلم كُلّ هذا، خُذها يا ولدي أنا لا أحتاج إليها.. قرأتها لي ابنتي نادرة ولم تنفعني بشيء.

ابتسم كريم ابتسامة خفيفة ومِن ثم قال:

ـحسنًا، أريد جميع المعلومات عن الشيخ كمال في أيّ ورقة وأنا سأمرُ عليكِ غدًا لأخذها.

وداعًا يا سيدة بشاير.

قام واقِفًا وأخذ الجريدة الموضوعة علىٰ الأريكة وذهب.

لم يهدأ بال كريم بعد.. فقد مرَّ علىٰ أخذ الجريدة ورفع بصمات نادرة مِن عليها ست ساعات كاملين ولم تظهر نتائج التقارير بعد.

ظل قلِقًا حتىٰ اتصلت بِه والدته؛ لتطمئن عليه وتعرف سبب تأخيره عن العودة حتىٰ الآن فقد دقت الثامنة مساءً ولم يأتِ بعد، ثم استأذن الضابط مُحمد وذهب إلىٰ البيت.

الواحدة صباحًا كانت الفاصِل في حياة زينة، لم تستطع زينة الخروج مِن البيت تِلك المرّة لكِنها قررت أنْ تذهب كما خططت إلىٰ المُختبر لتحليل عينة الدم الموجودة علىٰ منديل أبيها، لكِنها بحثت عنها في كُلِّ مكان فلم تجِد لها أثرًا، كادت رأسها أنْ تنفجر مِن كثرة التفكير ومُحاولة تذكر مكانها فهي مُتأكِدة أنَّها وضعتها أسفل الوسادة بعد أن أنقذتها الجِدة سُعاد مِن عمار تِلك الليلة.

وسط انهماك زينة في البحث عن المنديل الموجود عليه الدم سمعت صوت خطوات مُتثاقِلة تسير ببطء أمام غرفتها، خرجت زينة تتبع صوت الخطوات إلىٰ أن وصلت إلىٰ غُرفة الجِدة سُعاد كان الباب مفتوحًا علىٰ مصرعيه، دلفت بقدمها اليُسرىٰ إلىٰ الداخِل فوجدت الكُرسيّ الفضيّ مَنقولًا بقدر مِتر للجهة اليُسرىٰ والسجادة منزوع مِن أسفله، اقتربت زينة ببطء فسمعت صوت يُشبه صوتها تمامًا يهمس قائِلًا بأنين "آه.. آه"

اقتربت زينة مِن موضع الكُرسيّ فلم تشعُر إلا وهي ساقطة في مكانٍ حالك الظلام، تملك الهلع مِنها وحاولت الصراخ لكن صوتها لم يُسعفها في هذه اللحظات ولم يخرج.

دقائق مِن الرعب والهلع اللّذان كادا أن يقتُلا زينة وفوجئت بنور المصابيح الّتي اشتعلت كلها في وقتٍ واحد، التفتت حولها بهلع، لكِن صدمتها وهلعها هذه المرّة كان أكبر بكثير عندما رأته واقِفًا أمامها.

"الفصل الرابع عشر"

الأشياء القديمة دائمًا ما تبعث بِداخِلنا شعور بالأمان، لكِن الأمر مُختلف بالنسبة لزينة، رُبّما الشيء القديم دليلًا انتظرته لسنوات ورُبّما لُغزًا عليها إيجاد حله بأقصىٰ سرعة.

لقد كانت الصدمة الّتي تلقتها زينة صاعِقة، ظلت واقِفة تُدقق النظر وتفرك عيناها؛ لتستطيع أن تُصدق ما رأته، كان واقِفًا أمامها بهيئته تِلك الّتي إذا رأيته حَسِبته شابًا عشرينيًا في مُقتبل عُمره، لكِن ملامحه لم تكُن واضحة للحد الّذي يؤكد لها أنَّه هو بالفِعل، اقتربت أكثر فأكثر إلىٰ أنْ وصلت إلىٰ مكانه، لقد كان يرتدي مِعطفًا قديمًا مصنوعًا مِن الجوخ، أحد أكمامه بالية والأخرىٰ سليمة تمامًا، مدت يدها ووضعتها علىٰ ظهره، لكِن ما حدث كان غير متوقع بالمرّة فوجئت زينة بأن هذه الهيئة الّتي ظنت أنَّه أبيها مُزيفة، فقد كان تمثالًا واقِفًا في القبو وعِندما دققت النظر مِن حولها أدركت أنَّها تماثيل المشغل القديم الّذي كان يخص أبيها وعِندما توفىٰ قررت الجِدة سُعاد غلقه، كانت الأضواء تُفتح وتُغلق مِما أثار في نفسها الرعُب، لكِن حنينها وشوقها لأبيها قد غلباها فقد ظلت تتمشى بين هؤلاء التماثيل تشم رائحة أبيها.

عادت إلىٰ مكانها أمام التمثال الّذي يرتدي المعطف مرّة ثانية، فقد شعرت بشيء غريب تجاه المعطف، لمست بِه أمان أبيها وشعرت بدفء تجاهه، مدت يدها وأخذت المعطف وقربته إلىٰ أحضانها وظلت تبكي بحرقة لوقتٍ طويل، وبعدما هدأت مِن روعها حملت المِعطف بين يديها وصعدت الدرج وخرجت مرّة أخرىٰ إلىٰ غُرفة الجِدة سُعاد.

بعدما خرجت أعادت السجادة المفروشة إلىٰ مكانها وقامت بتحريك الكُرسيّ الفضيّ الّذي كان منقولًا مِن مكانه إلىٰ مكانه فوق باب القبو وخرجت مِن الغُرفة؛ كي لا يراها أحد بغُرفة الجِدة في هذا الوقت المُتأخر.

في نفس الوقت كادت الجِدة أن تختنق، فقد ظلت حوالي نصف ساعة تُحاول فتح الباب السِريّ للقبو الموجود داخِل غُرفتها بعدما اختبأت خلف الألواح الخشبية الموجودة في القبو أثر رؤية زينة، وبصعوبة بالغة أفقدت الجِدة الكثير مِن الجُهد استطاعت الجِدة فتح طاقة صغيرة في مُنتصف الباب السِريّ استطاعت مِن خِلاله مد يدها وحركت السجادة والكُرسيّ الموضوعين فوقه ثم قامت بفتح الباب للخارج وخرجت إلىٰ الغُرفة مَرّة أخرىٰ.

وقفت الجِدة علىٰ قدميها ونظرت إلىٰ الركُن الأيمن بجوار النافذة المُطلة علىٰ حديقة المنزل ومِن ثم تنهدت قائلة في نفسها "رائع.. لم تنتبه زينة لوجود الكُرسيّ المُتحرِك هناك وإلا كانت استطاعت معرفة الحقيقة".

في غُرفة زينة...

وضعت زينة مِعطف أبيها الّذي شعرت برائحة أبيها بِداخله أمامها علىٰ السرير وجلست علىٰ رُكبتيها تبكي بحرقة تتذكر أبيها في طفولتها والمنزل

ودفء عائلتها وكلّ شيء مُتعلق بها، قطع نحيبها وبكائها الشديد صوت رنين هاتفها، نظرت إلىٰ عقارب الساعة المُعلقة علىٰ الحائط أعلىٰ سريرها وجدت الساعة الثالثة صباحًا، تعجبت كثيرًا ومِن ثم قامت ومسكت الهاتف بيدها وبدا علىٰ ملامحها التعجب عندما قرأت اسم زوجها عمار علىٰ شاشة الهاتف، فتحت الهاتف ووضعته علىٰ أذنها وأنصتت إلىٰ عمار الّذي بدأ حديثه قائِلًا:

_أعلم أنَّكِ لن تستطيعي الحديث، لكني اشتقت إليكِ كثيرًا وأردت فقط الاطمئنان عليكِ؛ لأنني أرسلتُ إليكِ رسالة عبر الواتساب ولم يصلني ردك بعد.

(تنهد وهو يُغلق عينيه قائِلًا) يكفيني فقط أنني علمتُ أنَّكِ بخير، وداعًا عزيزتي.

ومِن ثم أغلق المكالمة، وضعت زينة الهاتف علىٰ المنضدة الموضوعة علىٰ يسار السرير ومدت يدها لتأخُذ المِعطف، ثم وضعته في خزانة ملابسها وجلست علىٰ سريرها تُفكِر في مكالمة عمار حتىٰ غرقت في النوم.

دقت الساعة الثامنة إلا ثلاث دقائق صباح يوم الاثنين السادس والعشرون مِن فبراير، استيقظ كريم علىٰ صوت رنين هاتفه لِيُخبره الضابِط مُحمد بضرورة التوجه إلىٰ قسم الشُرطة الآن.

قام كريم مُتعجلًا وارتدى ملابسه بسرعة البرق ثم نزل بسرعة وتوجه إلىٰ قسم الشُرطة.

بعد مرور ساعة إلا رُبع تقريبًا كان كريم جالِسًا في مكتب الضابط مُحمد وأمامه فنجان القهوة خاصته، بدأ كريم حديثه بقلق قائِلًا:

_ماذا حدث؟

تنهد الضابط مُحمد قائِلًا وهو يمسك بيده ملف أحمر اللون:

_وصل تقرير المعمل الجنائي بعد رفع بصمات نادرة مِن علىٰ الجريدة وتحليلها (ثم صمت).

بدا الفضول علىٰ ملامح كريم ثم قال:

_جيّد.. هل تطابقت البصمات مع بصمات القاتِل؟

هز الضابط مُحمد رأسه نافيًا وهو يقول:

_للأسف البصمات المرفوعة مِن علىٰ الجريدة مشوهة تمامًا لم يتم التعرُف عليها، تم إعادة رفعها وتحليلها ثلاث مرّات، ولكن كلّ مرّة كانت نفس النتائج (تنهد الضابط وأكمل بيأس)

أخبرني يا كريم هل يد نادرة بها أيّ نوع مِن التشوهات، محروقة مثلًا؟

أجاب كريم نافيًا:

_لا، يدها طبيعية تمامًا.

تعجب الضابط قائلًا:

_متأكِد أنَّ هذه البصمات لنادرة؟

رفع كريم حاجبه الأيسر قائلًا باستغراب:

_ماذا تقصد؟

أجاب الضابط مُحمد قائِلًا:

_هذه البصمات لا تخص إنسانًا بشريًا.

قال كريم في لهفة:

_ماذا؟

صمت قليلًا ثم أجاب بضحك:

_حسب خِبرتي فإن هذه البصمات ليست لامرأة طبيعية، هذه أصابع باندا يا رجل.. أصابعها ثمينة للغاية.

ابتسم كريم ابتسامة خفيفة ثم قال:

_ماذا سنفعل؟

أجاب الضابط مُحمد بصوت هادئ قائِلًا:

_لا تتعجل يا كريم ، ستجد القاتِل وسُتحقق العدالة، أنا واثق بِك، لكني مضطر لغلق ملف القضية ضد مجهول.. الآن جاءتني أوامر بذلك.

هز كريم رأسه موافقًا علىٰ كلامه وقال:

_سأجدِه إن شاء الله، شكرًا لمساعدتك.

وعاد إلىٰ المنزل خائب الأمل يشعُر بالخِزي، وكأن العالم بأكمله ضاق في وجهه.

علىٰ الجانِب الآخر في بيت عمار تحديدًا في غُرفة زينة ينتابها القلق ويفتت قلبها فقد دقت الواحِدة ظُهرًا ولم يفِق رياض بعد، حتىٰ الليلة الماضية لم يستيقظ ولو لِمرة واحِدة كما يفعل كُلّ ليلة، أخبرت الجِدة سُعاد بِذلك عن طريق كتابتها بخط اليد علىٰ مُفكرة صغيرة؛ كي تستطيع فهمها لكن الجِدة طمأنتها أنّهم لا زالوا في أول النهار يجب أنْ تتركه ليستيقظ علىٰ راحته حتىٰ لا يمرض أو تحدث له مُضاعفات نتيجة لقلة النوم.

وحتىٰ تستطيع زينة ألا تُفكِر في الأمر كثيرًا قررّت أنْ تقوم بترتيب خزانة ملابسها وتتبرع بالملابس الّتي لم تَعُد بحاجة لها إلىٰ الأيتام وحتىٰ أيضًا تستطيع أن تتذكر أين وضعت تِلك الحقيبة البلاستيكية السوداء الموضوع بِداخلها المنديل.

شرعت زينة في ترتيب الملابِس وأثناء ترتيبها لهم أخرجت معطف أبيها الّذي وضعته ليلة أمس في الخزانة، مسكت المِعطف مِن عند الرقبة ووضعته مقسومًا إلىٰ نصفين علىٰ ذراعها، شعرت بشيء موضوع في جيب المعطف الأيمن، بدأت تتحسس المعطف ثم وضعت يدها بالجيب وأخرجت مُفتاحًا صغير مُعلق بمدالية علىٰ شكل كُرة، دققت النظر في المُفتاح فوجدته صدأ، وهنا

شُنت حربًا داخِل رأسها مرّة أخرىٰ، بدأت تستعيد ذكريات يوم الحادث مِن جديد.

لم تستطع زينة تحمل الألم الّذي أطاح برأسها فجأة ووضعت يدها فوق رأسها وبدأت تشعُر باختناق حتىٰ سقطت مُغشيًا عليها.

بعد مرور ساعة فاقت علىٰ صوت بكاء رياض بجانبها، قامت تستند علىٰ سريرها الّتي سقطت بجواره واضعة يدها اليُسرىٰ علىٰ رأسها تشعُر وكأن ذِئابًا تقطع خلاياها، تنقلت ببطء إلىٰ أن وصلت إلىٰ سرير رياض والدموع تتساقط مِن عينيها كالسيول.

وقفت بجوار السرير وأخذت رياض وبدأت تُعِد له وجبة الحليب وعقلها شارد، فجأة تذكرت المُفتاح الّذي عثرت عليه في جيب المِعطف وجلست علىٰ رُكبتيها تمد يدها اليُمنىٰ أسفل السرير وتحمل بيدها اليُسرىٰ رياض والتقطت المُفتاح وخبأته في خزانة ملابسها أسفل الجرائد الموضوعة في أرضيته الخشبية.

"الفصل الخامس عشر"

القبو...

هل للقبو علاقة بموت والِد زينة أم أنَّه مُجرد دليل زائف تسير خلفه زينة بلا وعي كباقي الأدلة...؟

الساعة الرابعة عصرًا فوجئت زينة بإخبار نعمة لها أن تُحضِر رياض إلىٰ الأسفل؛ لأن الجِدة والعجوز بشاير في انتظارها.

استعادت زينة كريمتها لذاك اليوم الّذي رأت بِه جدتها والعجوز بشاير خلف المنزل.

أخذت رياض والفوضى تملأ الغُرفة، الملابس مُبعثرة في كُلِّ مكان ونزلت إلىٰ الأسفل.

اقتربت مِن الجِدة ومِن ثم جلست بجانبها تنتظر حديث الجدة الّذي مِن المُفترض أن تبدأ بِه.

ابتسمت الجِدة ابتسامة خفيفة ثم قالت:

ـابنتي زينة، أرسلت للسيدة بشاير بعدما أخبرتنني بنوم رياض لفترات طويلة؛ كي نطمئن عليه.

هزت زينة رأسها موافِقة ومِن ثم مدت يدها وأعطت رياض للعجوز بشاير.

بدأت تُتمتم له في أذنهِ قائلة "يا حفيد العظماء.. يا أرواح السماء احفظيه بِحفظِك واحميه مِن شر الحاسدين.. الحاسدين.. الحاسدين".

ظلت زينة تنصت إليّها لتستطيع فِهم ما تقول، لكنها لم تستطع فقد حاولت مِن قبل أكثر مِن مرّة أيضًا لكنها فشلت.

ومِن ثم أخرجت العجوز زجاجة صغيرة مِن حقيبتها ومدت يدها نحو زينة قائلة:

ـخُذِ يا ابنتي، ضعي نقطتين مِنها كُلّ يوم في الحليب الخاص بِه وسيكون علىٰ ما يُرام.

ظلت زينة تُدقق النظر في الزجاجة حتىٰ لاحظت ذلك الجِدة وقالت:

ـزينة!

انتفضت زينة ثم نظرت إلىٰ الجِدة مُنتبهة، فأكملت الجِدة قائلة:

ـخُذِ الزجاجة مِن يد بشاير.

هزت زينة رأسها ثم وجهت نظرها نحو بشاير ومدت يدها وأخذت الزجاجة.

وبعد ذلك أخذت رياض وتوجهت لغُرفتها.

نظرت العجوز بشاير إلىٰ الجِدة قائلة:

ـكُلّ شيء علىٰ ما يُرام، لا تقلقي سيدتي.. وضعت الترياق الّذي وصفتيه.

هزت الجِدة رأسها موافِقة ثم قالت:

ـهيا اذهبِ.

علىٰ الجانِب الآخر قد بدأ كريم في إعادة النظر إلىٰ جميع الملفات الّتي احتفظ بِها حول نادرة وعمار حتىٰ قضية موت زوج نادرة الّذي أصبح ناسيًا منسيًا قد احتفظ بأقوال نادرة حول خط سيره وتقارير الطب الشرعي، لم يعرف كريم يومًا الفشل فهو بالرغم مِن تِلك المصاعب الّتي تواجهه إلا أنَّه يواصل السير في عِناد وإصرار، لقد كان معروفًا بعِنده منذ الصغر؛ لذلك بدأ مِن جديد في البحث عن القاتِل، لم يكُن أمامه سِوى احتمالين إما نادرة أو عمار، نعم عمار الصيدلي الّذي يرتدي قِناع الشرف أمام الجميع فقد استطاع كريم معرفة حقيقة تجارته مِن خلال صفقات الأدوية المضروبة الّتي يعمل بِها ويقوم بتهريبها عن طريق الجمارك وحصل علىٰ أدلة تُثبت تورطه بمخالفة القانون والتهرب الضريبي.

كُلُّ هذه الجرائم كانت أحد الأسباب القويّة الّتي تؤكِد لكريم شكوكه.

عودة للماضي....

_نعم يا سيد كريم تردد أكثر مِن مرّة وحدث بينهما خِلاف قبل وفاته.

نظر كريم إلىٰ سيد ممرض الطبيب حسام قائِلًا:

_لِمَ لَمْ تُخبر الشُرطة بالخِلاف بين حسام وعمار في أقولك؟

اجتاح ملامحه القلق والتوتر وقال وهو يفرك يده ناظِرًا بعينه إلىٰ الجِهة اليُسرىٰ وقال وهو يفرك أنفه والعرق يسيل مِن جبينه:

_لا أستطيع.. لا أستطيع.

رمقه كريم بنظرة غضب قائِلًا:

_لِمَ؟

أجاب بتوتر:

_لأنّني لم أشاهده سِوىٰ مرّة واحدة وجميع مُقابلاتهم كانت سِريّة.

صمت قليلًا ثم أكمل:

_السيدة سهام هي الّتي قامت بقتله أنا واثق مِن ذلك.

رفع كريم حاجبه الأيسر ثم قال بهدوء:

ـوما الّذي يؤكد لكَ ذلك؟

ابتلع ريقه بصعوبة فقد أدرك ذكاء كريم لكنه تحدث بسذاجة جعلته يذوب قلقًا وتمنى لو انشقت الأرض وابتلعته؛ ليستطيع الهرب مِن سؤال كريم ، لكنه حاول أن يستجمع قواه وأجاب:

ـلأنّني رأيتها أكثر مِن مرّة تُهدده.

تصنع كريم تصديقه ومِن هُنا تأكدت شكوكه.

عودة للحاضر...

دقت الساعة الواحِدة صباحًا اتجهت زينة إلىٰ الغُرفة الخلفية لتخبئ الصندوق الّتي جمعت بِه الأدلة مرّة أخرىٰ بعدما وضعت بِداخِله المُفتاح الّذي عثرت عليه.

وصلت إلىٰ الغُرفة الخلفية بعد حوالي عشر دقائق، دلفت بقدمها للداخِل ولأول مرّة تُلاحِظ تِلك اللوحة الخشبية أعلىٰ الحائط المُجاور للسرير القديم، نظرت بتمعُن وسارت بخُطى مُتثاقِلة ثم قامت بوضع يدها علىٰ اللوحة ونفثت الغبار المُراكم أعلاها، فوجئت بثقب موضوع في مُنتصفها، وضعت إصبعها وتحسست الثُقب ومِن ثم قامت بنزع اللوحة مِن مكانها فوجدت

طاقة محفورة بالحائط بابها خشبيّ، غرقت زينة في ذهولها أمام تِلك الطاقة يهطل الفضول داخِلها حول معرفة ما وراء الباب الخشبي، ظلت تُحاول فتحها حتىٰ استطاعت بعد ثمانِ دقائق فتح الباب ثم قفزت داخِل الطاقة وسارت زاحفة علىٰ قدميها في ممر طويل حوالي متر ونصف وفي نهاية الممر علىٰ الجهة اليُسرىٰ وجدَت بابًا طوله حوالي متر، فتحت الباب برفق ولكِنها لم تتفاجأ بشيء لقد وجدت نفسها داخِل القبو بين تماثيل مشغل أبيها.

ظلت تلتفت حولها وتفحص المكان بِدقة؛ لعلّها تجد دليلًا قاطِعًا تستطيع مِن خِلاله معرفة ما حدث لوالديها.

وأثناء فحصها التَوَت قدمها فسقطت في حُفرة صغيرة خلف أحد التماثيل، جلس تُدلك قدميها فلاحظت أسهم موجودة علىٰ الأرض باللون الأبيض قامت تتبع الأسهم حتىٰ وصلت إلىٰ نهاية الأسهم وهُنا تذكرت تِلك الخريطة الموجودة بين الأدلة الّتي جمعتها وعادت مُسرعة لتتفحصها وتستعين بها في فك شفرات الأسهم.

عادت مُسرعة وخرجت مِن الممر إلىٰ الغُرفة الخلفية مرّة أخرىٰ، التقطت الخريطة بسرعة البرق، لكِنها نظرت في ساعتها وجدت الساعة قد دقت الرابعة صباحًا وما هي إلا دقائق وسيمتلأ البيت بالضجيج لأداء صلاة

الفجر، أخذت الخريطة ومعها المفتاح وطوتها بين يديها ثم قررت العودة مُسرعة إلىٰ الغُرفة وأثناء عودتها فوجئت برؤية الخادمة نعمة تحمل بين يديها قُفة مصنوعة مِن جريد النخل متوجهة نحو الغُرفة الخلفية للمنزل، اختبأت خلف الشجرة المُرتخية الغصون، لكن الرُعب قد تملكها فقامت بالحفر أسفل الشجرة ودفنت بداخِلها الخريطة والمفتاح لتستطيع تتبُع نعمة.

تتبعت خطوات نعمة إلىٰ أن وصلت للغُرفة الخلفية وهُنا دلفت خلفها إلىٰ الداخِل، لكن فوجئت بأنَّ الغُرفة خالية تمامًا، راحت تفرك عيناها فهي بالفعل رأتها وهي متوجهة إلىٰ الداخِل، بدأت في البحث عنها في جميع أنحاء الغُرفة، لكن بلا فائِدة، لم تستطع إيجادها، عادت متوجهة إلىٰ المنزل ومِن ثم خرجت نعمة خلفها بعد أنْ راقبتها وتأكدت مِن خروجها.

عادت زينة بسرعة إلىٰ غُرفتها، لكنها شعرت بخطوات داخل الغُرفة، فتحت بسرعة.. لكنها لم ترَ أحدًا، ظلت تتلفت يمينًا ويسارًا ومِن ثم قامت بالخروج إلىٰ النافذة تتلفت حولها وتُمعِن النظر إلىٰ الأسفل.

عادت إلىٰ الداخِل مرّة ثانية بعد التأكُد مِن عدم وجود أحد وقامت بغسل أيديها وتوجهت إلىٰ سريرها؛ كي لا تشعُر الجِدة بشيء عندما تأتي لتوقظها لصلاة الفجر.

علىٰ الجانِب الآخر في منزل نادرة الرديء ووالدتها الّتي لا تكُف عن النقار معها طوال الليل؛ بسبب الجوع الّذي ينهش في معدتها كالذئاب، كانت نادرة قلقة بسبب تِلك المقالات الّتي نُشرت بخصوص قضية الطبيب حسام فهي لا تستطيع تحمُل كلام والدتها ولومها، تركت نادرة المنزل وخرجت إلىٰ الشارع وجلست أمام بيتها تُفكِر في رياض.

"الفصل السادس عشر"

الفقدان سوط يجلد جميع القلوب...

فهل يا تُرا سيجلد قلب عمار أم أنَّه سيظل لامُباليًا هكذا..؟

صباح الثامن والعشرون مِن فبراير تلقىٰ عمار مُكالمة هاتفية مِن جِدته تُخبره بِها بضرورة العودة إلىٰ القاهرة اليوم.

انتاب عمار القلق الشديد فَكُلّ ما دار بخاطره هي تِلك الهواجس الّتي تُطارده دومًا؛ خوفًا مِن فَقْد زينة، فهو يُحبها حبًّا غير طبيعي يحمل بين طياته شيئًا مِن التملُك، فهو يُعاني يوميًا مِن فرط القلق لخُسارتها.

اتجه عمار إلىٰ القاهرة علىٰ الفور وعِندما دلف بقدميه إلىٰ البيت سمع صوت نواح وعويل ملأ أركان البيت، تجمد الدم بعروقهِ للحظات ثم ركض متوجهًا إلىٰ الطابق الثاني حيث توجد غُرفة زينة وبمجرد صعوده وجد الجِدة تجلس علىٰ الأرض تبدو علىٰ وجهها الصدمة، حادقةً عينيها وكأنَّها أُصيبت بصعق كهربي.

ظل يبحث بنظره عن زينة تِلك الّتي فوجئ بثلاث ممرضات يمسكن بها والطبيب يُحاول تهدئتها يحمل بين أصابعه إبرة مُهدئة، طاح عمار راكضًا نحو الطبيب يتشاجر معه، تداركت الجِدة الموقف قائلة بِسُرعة:

_عمار...! توقف.

التفت عمار نحو الجِدة وهو يمسك برقبة الطبيب قائِلًا:

_ماذا يفعل بها هذا الغبي؟

رمته الجِدة بِسِهام الحديث قائلةً دون وعي:

_رياض مات، لم يفق مِن النوم، حاولت زينة كثيرًا أنْ تُوقِظه مِن نومه، لكِنه لم يفِق.

أفلت يده المُعلقة برقبة الطبيب وحدقت عيناه قائلًا:

_ماذا تقولين أنتِ؟

صاحت قائِلة:

_أقول الحقيقة.

راح يدور حول نفسه بهستيرية قائِلًا:

_كيف حدث هذا؟ كيف؟

سيطرت علىٰ الجميع حالة مِن اللا وعي وامتلأ البيت بالضجيج والعويل، أما عن زينة فقد أُصيبت بصدمة شديدة جعلتها تتصرف بعدوانية رافضةً أن يقترب أحد مِن رياض.

وما هي إلا ساعات وانتشر خبر موت رياض الابن الوحيد لأحد أهم الأطباء صاحب أكبر شركات أدوية في الشرق الأوسط "عمار البحيري".

ذُهِل الجميع بهذا الخبر المؤلم، منهم مَن تعاطف مع عمار ذاك الرجل الّذي تقنع بالبراءة والأعمال الخيرية أمام الجميع، ومنهم مَن كان يعرف الحقيقة كالطبيبة سهام القاضي الّتي حاولت جاهدة بكامل طاقتها أن تمنع عملية تأجير رحم نادرة وإنجاب طفل بهذا الشكل المُخالف للدين والقانون، لكِن كريم كان دائمًا له نظرة مُختلفة للأمور.. هو لم يهمه الخبر بقدر ما همه الوقت الّذي حدثت فيه حادثة موت رياض، ازدادت شكوكه نحو نادرة وعمار فهذا الوقت تحديدًا لم يكُن هناك أيّ تفسير للحدث سِوىٰ أنَّ ما حدث لرياض هو بفعل فاعِل أراد أنْ يختطف الأنظار مِن قضية الطبيب حسام وإنهائها للأبد ويُسلط الضوء علىٰ حدث جديد قد تلتهي بِه الشُرطة والناس ويُغلق تمامًا ملفها بعد ذاك المقال الناري الّذي نُشِر الليلة السابقة علىٰ الإنترنت وكان كما يلي...

" الطبيب حسام السفطي وصديقه المجهول وصفقات الأدوية المُهربة والداخِلة عن طريق الجمارك إلىٰ داخِل.. الحقيقة الصاعقة الّتي أردتُ أنّ أكشفها للجميع والصاعقة الأكبر هي مافيا الإتجار بالبشر الّتي أسسها وأدخلها إلىٰ مصر عن طريق استغلاله لفتيات الإشارات واللّاتي لم يجدن

مخرجًا مِن الفقر سِوىٰ الإتجار بأنفسهن للحصول علىٰ لُقيمات الخبز المُتبقية مِن أطباق الطبقات العُليا، سبع وستون جريمة بشرية ارتكبها الطبيب حسام وشريكه المجهول ما بين تأجير الأرحام؛ تِلك العمليات الّتي لم يعرفها الشرع ولا العُرف ولا القانون يومًا، بتعاونه مع أحد العيادات والأطباء الأجانب استطاع تهريب فتيات بغرض العمل مِن خِلال مكتب السفريات الّذي افتتحه عام ألفين وثلاثة عشر وأخذه سِتارًا للإتجار بالفتيات وإرسالهن إلىٰ أحد المراكِز الطبية بولاية واشنطن الأمريكية الّتي يُعد الطبيب حسام شريكًا بِها مما أتاح للفتيات التبرع ببويضاتهن هناك مقابِل مبلغ مِن المال، لم يقتصر الأمر علىٰ تأجير الأرحام فقط فقد سار علىٰ نهج الطبيب حمزة صاحب أشهر قضايا الإتجار بالأعضاء البشرية وقام بإرسال الرِجال أيضًا إلىٰ مراكِز الخصوبة لبيع أعضائهن التناسلية والاحتفاظ بها في بنوك الأمشاج المشهورة حول العالم.

استهدف الفئات الصغيرة مِن الفتيات والشباب ما بين الثمانية عشر عامًا إلىٰ التسع وعشرين عامًا للقيام بمثل هذه العمليات، واستطاع تأسيس عيادة للتلقيح الصناعي الّتي تُعد أحد الستائر المُنسدلة علىٰ حقيقة العمل بداخِلها.

الإتجار بالفقراء هو الوسيلة الوحيدة لتحقيق أحلام الطبقات العُليا، فهل كُلّ هذه الجرائم هي ناتج الفقر الّذي يُعانيه الطبقات السُفلىٰ في المجتمع أم أنّه مرض راسِخ بقلوب هؤلاء عديمي الدين؟

الإجابة إلىٰ الآن مجهولة، لكِن قريبًا سيتم البوح بها.

ولكن قبل أنْ أُنهي مقالي أتوجه بالشُكر لخادم الطبيب حسام ذاك المَدعو سيد الأسيوطي الّذي اختلف مع الطبيب حسام علىٰ مبلغ قدره مأتي ألف جُنية مُقابِل بيعه لزوجته للقيام بأحد عمليات تأجير الأرحام لرجل وامرأة أجانب، أتوجه بالشُكر له علىٰ معلوماته الخاطئة والّتي حاول جاهِدًا تضليلي بها"

~~مجهول~~

كان هذا الوقت تحديدًا بعد إلقاء القبض علىٰ "سيد الأسيوطي" بمساعدة السيدة سهام وتسليمها تسجيلات كاميرات المنزل لكريم الّتي تُظهِر اتفاقيات دارت بين سيد والطبيب حسام ومساومته علىٰ زوجته وسفرها إلىٰ الخارِج كفيلًا بأنْ يُضيف للقاتِل جريمة أخرىٰ إلىٰ سِجل جرائمه؛ لجعل الناس يلتهون مِن جديد.

كان لوقوع الخبر علىٰ آذان الجميع أثرًا وعلىٰ أذن نادرة أثر مُختلِف تمامًا فقد جَنَ جنونها وكشرت علىٰ أنيابها يبدو أنَّ هدوئها الّذي تظاهرت بِه هو هدوء ما قبل العاصفة؛ العاصفة الّتي ستحرق الجميع دون رحمة.

مرَّ يومان ولا زالت زينة رافضة الطعام والشراب والأدوية، كُلّ ما تفعله فقط هو جلوسها علىٰ سريرها تحتضن رُكبتيها بين يديها تحمل بين طيات قلبها قهرًا وتُضمِر داخلها نيران الفقد المُتأججة، يهطل الدمع مِن عينيها.. حادقة النظر طوال الوقت في سرير رياض الموضوع بجوار سريرها، جالسة وحيدة في غُرفتها كعادتها، وعمار كعادته أتىٰ مُتأخِرًا وراح يخطو إلىٰ سريره؛ كي ينام.

وبعد مرور نصف ساعة كانت الساعة قد دقت الثالثة وسبع دقائق صباحًا استيقظ عمار فزِعًا علىٰ صوت قهقهة دوى صداها في أرجاء الغُرفة، التفت حوله بهستيرية، ولكِنه فوجئ بِجدته سُعاد تجلس علىٰ الكُرسيّ المُتحرِك خاصتها في مُنتصف غُرفته، فرك عينيه ودقق النظر ثم قال بصوتٍ مفتور:

_جدتي!

نظرت إليّه باستهزاء قائلة:

ـحسرةً عليك يا ولدي.. غارقٌ في سُكرِك وتارِكًا زوجتك غارقة في حُزنها علىٰ ولدك.

اعتدل عمار في جِلسه ثم قال بلامُبالاة:

ـأُريدها أنْ تعلم أنَّ لا أحدًا باقي لها سواي، أنا مَن كنت بجانبها مُنذُ صغرها، لكنها لم تشعر يومًا بهذا.

(جذ علىٰ أنيابه واحتدت نظرته وأكمل)

لم تُبادلني يومًا نصف الحُب الّذي أحمله لها في قلبي، زينة أحبت جميع مَن حولها ولم تُحبني يومًا (قام واقِفًا وتوجه نحو الجِدة وهو يقول)

لم تُقدِر مُخاطرتي ومُحاربتي لـنادرة لأجل تحقيق أمنيتها وانشغلت بِه عني، هذا الألم الّذي تُعانيه الآن عِقاب لِمَ فعلته بي.

نظرت الجِدة إليّه نظرة استهزاء مشوبة بالشفقة علىٰ حاله قائلة:

ـكُنت مُخطئة عندما ظننت أنَّني سأستطيع إيقاظك مِن غفلتك تِلك.

وأدارت ظهرها وخرجت مِن الغُرفة.

حدق بنظره في المدىٰ الواسع لغُرفته، ثم لملم نظراته والتفت نحو صورة زينة الموضوعة بِجانبه علىٰ المِنضدة وقال في نفسه "تستحقين الألم يا زينة علىٰ ما فعلتيه بي والشعور الّذي جعلتِنني أشعر بِه، دائمًا ما كُنت منبوذًا منذُ صغري حتىٰ مِن أبي الّذي بخل عليَّ بحنانه وعاملني أسوأ مُعاملة بعد موت أمي، لكِنكِ جئتِ إلىٰ هُنا مع أمِك بعدما تزوجها أبي ولم أتعلق بشيء في حياتي سِوىٰ بوجودِك، مِن وسط هذا الحشد المُتجمع ذاك اليوم رأيتِك أنتِ.. أنتِ فقط يا زينة مَن كنتِ نجمة أرخت ضوئها علىٰ ظلامي، لكِنكِ خائنة مِثل أمِك الّتي باعت أبي لأجل أبيكِ فعاقبها الله بموت أبيكِ كما عاقبِك الآن"

ثم أخفض الصورة ووضعها مقلوبة علىٰ وجهها وقام ينفث لفافة التبغ الّتي أخرجها مِن دُرج المِنضدة.

" الفصل السابع عشر"

الحقيقة.. هي الشيء الوحيد الّذي يسعىٰ الجميع لأجله.

كريم .. زينة.. الجِدة سُعاد كلّ منهم يسعىٰ لمعرفة شيء مدفون داخِل مقبرة الماضي.

صباح الخميس الثالث مِن مارس تلقت زينة اتصالًا مِن الممرضة الّتي تُعالجها وأخبرتها بتشخيص الطبيب لموت رياض المُفاجئ حيث أنَّه توفىٰ نتيجة لسد المجرىٰ الهوائي للطفل ونقص حاد في الأكسجين وأنَّ هذه ميتة طبيعية للأطفال أقل مِن عام الّذين يُصابون بمتلازمة موت الرضع (**SIDS**).

أغلقت زينة الهاتف وانفجرت بالبكاء، أما عن عمار فقد تلقىٰ خبر القبض علىٰ "سيد الأسيوطي" مُساعِد الطبيب "حسام السفطي"، لم يؤثر عليه الخبر كثيرًا فقد كان متوقعًا لِمَ حدث بعد انتشار المقال الّذي ذُكِر اسمه فيه.

زحف النهار ببطء علىٰ زينة الّتي أصبحت لا تشعُر بشيء سِوىٰ الألم الّذي يُمزق قلبها إربًا.. إربًا، لم يزدها موت رياض إلا كُرهًا لِزوجها عمار وقررّت السفر إلىٰ خارج مِصر، لكِنها أصرت علىٰ معرفة حقيقة موت أبيها قبل أن تذهب فهي مُنذ موت أبيها ويراودها الشك أنَّ ما حدث كان بفِعل فاعِل وأنَّ السيد "حسن عبد التواب البحيري" والِد عمار متورط في ذلك؛ بعد طلاق أمها مِنه وعودتها لأبيها مرّة أخرىٰ.

دقت الساعة الثانية عشر مُنتصف الليل.. خرجت زينة مِن غُرفتها بعدما تأكدت مِن نوم الجميع وأصبح الجو هادئًا تمامًا وتوجهت إلىٰ الغُرفة الخلفية، سارت ببطء علىٰ أطراف أصابعها حتىٰ تمكنت مِن الخروج إلىٰ حديقة المنزل،

شعرت بصوت أقدامٍ تتبعها، التفتت خلفها لكِنها لم تجِد أحدًا، وبعد سبع دقائق قد وصلت إلىٰ الغُرفة الخارجية.. دلفت بقدمها اليُمنىٰ مُتوجهة نحو الطاقة المثقوبة في منتصف الجِدار، نزعت اللوحة ثم قامت بفتح الباب الخشبيّ وسارت داخِل الممر، ما هي إلا دقائق وقد وصلت زينة إلىٰ القبو ودلفت بقدمها اليُسرىٰ ثم نزل علىٰ الدرج لأسفل، كان الظلام حينها حالك جدًّا لم تستطع رؤية شيء، سارت تتحسس إلىٰ أنْ وصلت إلىٰ تجاه مفتاح المصباح وقبل أن تضع يدها لفتح المصباح كانت أضواء القبو كُلّها قد فُتِحت، تراجعت للخلف خطوتين وقد احتاجت الصدمة ملامحها عِندما فوجئت بالجِدة سُعاد واقفة علىٰ قدميها أمامها، حدقت بعينها وحاولت التحدُث لكِنها لم تستطع.

اقتربت مِنها الجِدة سُعاد وعلىٰ شفتيها ابتسامة ماكرة وقالت:

_تأخرتِ، أنتظرك منذ ما يُقارب ساعة إلا رُبع (اعتدلت في وقفتها بعد أن كانت مُتكئة علىٰ قدم دون الأخرىٰ وأكملت)

هيا يا زينة أخبريني لِمَ تأتي إلىٰ هُنا (دارت حول زينة وهمست في أذنها قائلةً) تُريدين معرفة الحقيقة؟

(أخذت نفسًا عميقًا وأكملت وهي ترفع حاجبيها وتهز رأسها)

أعلم ذلك، مِثل أُمِك تمامًا يا زينة دائمًا مِثل الثعالب ماكرين للجميل، أمِك بعدما تزوجها ابني لم تستطع أن تكُف عن حُب أبيكِ الّذي سرقته مني.

رفعت زينة رأسها وحدقت بعينها أكثر مُحاولة الحديث، لكِن الجِدة قالت بابتسامة ساخرة وهي تهز رأسها يمينًا ويسارًا باستهزاء:

_لا تُحاولين الحديث مُجددًا، لن تستطيعي لقد وضعتُ لكِ حبوبًا بين مهدئاتِك تُفقدِك النطق بعدما حاولتِ تِلك الليلة معرفة ما يحدُث بغُرفتي ليلًا.

(التفتت نحوها وأكملت) صراحةً يا عزيزتي كُنت أُريد قطع لِسانِك تمامًا، لكِن حُب ابني عمار الأعمىٰ لكِ منعني مِن ذلك.

بدت علىٰ ملامح زينة الصدمة الشديدة وبدأت الدموع تسيل مِن عينيها.

فرقعت الجِدة أصابِعها وقالت:

_دعيني أُكمِل لكِ باقي القصة (ولاحت بإصبعها السبابة في وجهها مُحذِرةً إياها) إياكِ أن تُقاطعيني ثانيًا بملامح الصدمة الّتي تعتلي وجهِك.

جِدك عبد التواب مات بعد زواجِنا بثلاثة أشهر، حينها كنتُ أحمِل بين أحشائي ابني حسن والِد زوجِك عمار، بعد ولادته تزوجت مِن أبيكِ حوالي عشر سنوات وانفصلنا بعدما سرقته أُمِك اللعينة مني، كانت حينها صغيرة استطاعت صاحبة الثمانية عشر عامًا أنْ تسرقه وتلعب بعقله الخمسيني.. تركتُ البلدة حينها وجِئت إلىٰ هُنا وتاجرت أنا وولدي حسن حتىٰ تزوج مِن أم عمار الّتي ماتت أثناء ولادتها إياه، بعدها بثلاثة أشهر قد التقىٰ بِأُمِك وتزوجها رغمًا عني، لكِن طبع الخيانة كان يسري بعروقِها بعدما استطاعت أنْ تأخُذ المشغل مِن ابني طلبت الطلاق وعادت لأبيكِ ثانيًا وأعطته المشغل، لكن حينها لم أستطع فِعل شيء قد وقع بكِ عمار حفيدي كما وقع أبوه بأُمِك.. كان طِفلًا صغيرًا لكِنه أحبِك، لم يكُن لديَّ خيار وقتها سِوىٰ التخلص مِن أمِك وأبيكِ معًا لتبنيكِ وأزوجِك عمار.

أما عن القبو وسِر غُرفتي الّذي تُحاولين كشفه.. لا شيء سوىٰ أنّي أُحاول منذ ثلاث سنوات أنْ أبحث عن سِر أبيكِ وأيضًا أخبئ بِه أوراق الممتلكات الخاصة بنا؛ كي لا يستطيع عمار الوصول إليهم وإعطائك كُلّ شيء ومُقابلتي لبشاير هي بخصوص هذا الأمر.

(تنهدت قليلًا بعد صمت ساد المكان لمدة ثلاث دقائق وأكملت)

واليوم لا أُريد منكِ سِوىٰ شيء واحد فقط.

انتبهت زينة جيّدًا لِمَ قالته والدموع تصُب مِن عينيها صبًا وأشارت بيدها مُستفهمة.

أخذت الجِدة سُعاد نفسًا عميقًا ثم أطلقت زفيرًا وتنهدت قائلة:

_الخريطة الّتي عثرتِ عليها؛ لأستطيع الوصول إلىٰ الصندوق الموجود معكِ مُفتاحه أيضًا وأُنقِذ عمار مِن الأذىٰ اللاحِق بِه ولم يصله بعد.

بدت علامات الاستفهام علىٰ وجه زينة ثانيًا، لكِن الجِدة رفضت إخبارها بشيء.

وبعد محاولات عديدة باءت بالفشل رفضت زينة إخبار الجِدة بمكان الخريطة.

علىٰ الجانِب الآخر كان كريم يُعِد مقالًا آخر؛ ليوقِع بِعمار وشُركاه ويستطيع التأكُد مِن قاتِل السيد "حسام السفطي" وتقديمهم جميعًا إلىٰ العدالة.

فقد قام بنشر المقال التالي...

" حسام السفطي تاجر البشر وشركاه مِن الصيادلة الّذين يتقنعون بالبراءة ويرتدون رداء الدين والمُحافظة علىٰ الصلوات في مواعيدها لإبعاد الشُبهة عنهم.

أولًا سأوضح مفهوم الإتجار بالبشر مِن جديد يُستخدم مصطلح الإتجار للتعبير عن تجنيد شخص ما أو إيوائه أو الاستحواذ عليه أو نقله عن طريق القوة، أو الاحتيال أو الإكراه بهدف إخضاعه لممارسات غير طوعية، كتلك المتعلقة بالاستغلال الجنسي التجاري.

اليوم عزيزي القارئ سأكشف لكم أحد أهم الخبايا في قضية إتجارهم بالبشر.. تهريب الأشخاص والمُهاجرين واحتجازهم بالإكراه وإجبارهم علىٰ العمل لصالحهم فقط وخاصةً «العمل القسري» الّذين تورطوا بِه حول الوطن العربي وليس مِصر فقط، حيث قاموا بالتهديد والعُنف للجميع وإجبارهم علىٰ العمل طوع إدارتهم فقط دون أجر، تُقدِر منظمة العمل الدولية وجود ما لا يقل عن ١٢,٣مليون ضحية للعمل القسري حول العالم، يخضع ٩,٨ مليون شخص منهم لاستغلال عملاء خاصّين، ويُتاجر بما يزيد عن ٢,٤ مليون عامل منهم، كان لحسام السفطي وشركاه يد في استغلال ما لا يقل عن ثلاث مائة شخص في مصر والوطن العربي.

أما الجريمة الثانية ضمن أحد الجرائم الّتي ارتكبها "حسام السفطي" وشُركاه هي هجرة الشباب والفتيات والأطفال إلىٰ الخارِج وإجبارهم علىٰ الممارسات الجنسية الغير مشروعة.

ثلاث شباب قاموا بالتبرع بأعضائهم التناسلية كما ذكرت في المقال السابق تحت التهديد بعدما قام الطبيب حسام السفطي بنقلهم إلىٰ خارِج الدولة مِن خِلال مكتب السفريات الخاص بِه وأوهمهم بوجود عمل دائم هُناك تحت إشراف المكتب مُقابِل عشرون ألف جُنيهًا، وقد روت السيدة والدة أحد الضحايا أنَّ ولدها أُجبِر علىٰ التبرع بجزء مِن أعضائه التناسلية مُقابِل مأتي ألف جنية أرسلهم لوالدته عن طريق دُفعات مِن الخارج.

لا زالت الأيدي المُتخفية بيننا للإتجار بالبشر موجودة، فهل يا تُرا موت الطبيب حسام كان خِطة محبوكة تمامًا مِن شُركاه أم أنَّه قرر الانتحار بحبات الربو الّتي تناولها للتخلُص مِن حياته وإرضاء ضميره؟

سنرىٰ في المقالات التالية وإلىٰ اللقاء... "

~~مجهول~~

بعد نشر المقال بثلاث دقائق تلقىٰ عمار اتصالًا هاتفيًا مِن أحد شُركاه يُخبره عما ذُكِر في المقال.

قام بفتح هاتفه وفتح المقال وقام بقراءته.. بعدما انتهىٰ مِن قراءة المقال قام بانتزاع البابِب مِن فمه وانطلقت ضحكاته المشوبة بدخان التبغ تهز أرجاء الغُرفة، فقد سيطرت عليه حالة مِن اللا وعي وراح يضحك بهستيرية.

"الفصل الثامن عشر"

يقول تشي جيفارا:

"الّذي قال أن الفقر ليس عيبًا كان يريد أنْ يُكملها ويقول.. بل جريمة، ولكن الأغنياء قاطعوه بالتصفيق الحار"

صباح الجمعة الرابع مِن مارس كانت صوت الإسعاف يدوي في الحيّ بأكمله وكان هُناك ثلاث ممرضات يمسكن بِـزينة جيّدًا؛ كي لا تستطيع الهرب مِن بين أيدهم وانتقلوا إلىٰ المشفىٰ بعد أن أُصيبت زينة بنوبة تشنجات فجأة، لم يُرِد عمار الاتصال بالمشفىٰ وانتظر الطبيب الخاص بِها.. لكِن الجِدة أقنعته بضرورة الاتصال بالإسعاف لتوفير الوقت ولكي يطمئن علىٰ زينة وعدم حدوث مُضاعفات لها؛ بسبب انشغال وتأخره.

انتقلت زينة إلىٰ المشفىٰ وقام الطبيب بإعطائها إبرة مُهدئة وخرج مِن الغُرفة، كان عمار واقِفًا يتصبب مِنه العرق وأنفاسه تتسارع مِن شِدة الخوف، تقدم إلىٰ الطبيب وقال بلهفة:

_أخبرني أيها الطبيب ماذا حدث لها؟

تنهد الطبيب وقال:

_للأسف تعرضت لصدمة عصبية شديدة جعلتها تناولت أقراص مُهدئة بِشكل مُفرط.

تراجع عمار إلىٰ الخلف حتىٰ التصق بالجِدار قائلًا والدموع تتسابق السقوط مِن عينيه:

_وما الحل؟

وضع الطبيب يده علىٰ كتِف عمار وربت قائِلًا:

_أنا آسف مضطر لنقلها إلىٰ مصحة نفسية؛ كي تتعافىٰ كُلّيا وتتخلص مِن إدمان المُهدئات.

حدق بعينيه وقال وهو ينزع يد الطبيب الموضوعة علىٰ كتفه قائلًا وهو يقرض أسنانه بغضب:

_ماذا تقول أنتْ؟ أجننت؟

(مسكه مِن ياقة قميصه بيده اليُسرىٰ وأكمل وهو يلوح بإصبعه السبابة في وجههِ مُحذِرًا)

إياك أن تفعل ما تقول، إياك.

قاطعته الجِدة الّتي وصلت علىٰ الفور إلىٰ هُناك قائلة:

_عمار..!

التفت عمار فوجدها تتحكم في الكُرسيّ المُتحرِك الخاص بِها وتقترب مِنه قائلة:

_اتركه.

(تركه عمار وعاد إلىٰ الخلف خطوتين فأكملت)

هذا هو الحل الوحيد، زينة لو عادت إلىٰ البيت بهذه الحالة رُبّما يحدُث لها شيء أكبر.. الأفضل لها ألا تعود حتىٰ تتعافىٰ تمامًا؛ كي لا يُذكرها البيت وأركانه بولدها رياض.

نظرت إلىٰ الطبيب وأشارت بيدها قائلةً:

_هيا يا ولدي قُم بأخذ الإجراءات اللازمة.

هز الطبيب رأسه مؤكِدًا وأدار ظهره وذهب.

التفتت الجِدة نحو عمار قائلة:

_لا أريد سماع أيّ كلمة تخص هذا الأمر، أخذت القرار الصحيح وعليك إتباع أوامِري.

مَرَّ النهار وعاد عمار إلىٰ المنزل يسير ببطء وخطواتٍ مُتثاقِلة، شارد.. تائه إلىٰ أنْ أودت بِه قدماه إلىٰ غُرفة زينة، دلف بقدمِه اليُمنىٰ ومِن ثم سار مُتجوِلًا بالغرفة يشم رائحتها وينظُر إلىٰ ملابِسها في حسرة وألم.

جلس علىٰ سريرها مُنكس الرأس يسيل بِداخِله الألم سيل النزيف وعلىٰ غير العادة قام ونظر إلىٰ سرير رياض بِحُزنٍ شديد، لكِنه قام بتحطيم السرير وأحضر زجاجة بنزين وقام بإشعال النار بِه بعد أن وضعه في مُنتصف الغُرفة وقام أيضًا بإحراق جميع الأشياء المُتعلقة بِه بِما في ذلِك ملابِسه وأدويته، لم يُلفت انتباهه سِوىٰ تِلك الزُجاجة البُنية ذات الغطاء الأسود بين أدويته، التقطها مِن الأرض وقام بفتحها ومِن ثم قربها إلىٰ أنفه ليشتم رائحتها فوجدها عديمة الرائحة، جنَّ جنونه ومِن ثم قام بإلقائها علىٰ الأرض فتناثر مُحتواها في جميع أرجاء الغُرفة.

في نفس اللحظة وعلىٰ الجانِب الآخر كانت نادرة قد نفذ صبرها وبلغت رغبتها في الانتقام مِن عمار الحلقوم، كانت تقف أمام لوحة مُعلقة في غُرفة سريّة عنوانها ليس معلومًا، كانت ترتدي رداءً أسود واضعة فوق رأسها قرون سوداء ومِن أسفلهم شال أسود، عيناها ممتلئة بالكُحلِ الأسود المختلط بالدموع الّتي تسيل علىٰ وجنتيها، كانت الأضواء خافتة لونها أحمر تُتمتم قائلة بصوتٍ عالٍ وسط المُوسيقىٰ الصاخِبة وهي تدهن جسمها كامِلًا بِدم القط الّذي ذبحته منذُ دقائق " لكَ المجد أيّها الشيطان.. لكَ المجد، أنتَ أمرتنا بـذلك «اقتل ما رغبت في ذلك، امنع البقرة من إدرار اللبن، اجعل الآخرين غير قادرين علىٰ الإنجاب، اقتل الأجنة في بطون أمهاتهم، اشربوا دم الصغار

واصنعوا منه حساء، اخبزوا في الأفران لحومهم، اصنعوا من عظامهم أدوات للتعذيب» المجدُ لكْ.. المجدُ لكْ.. قتل حفيدًا مِن أحفادك سأصنع مِن عِظامه أدوات للتعذيب، سأجعله أشلاءً، سأنثر دمه علىٰ الطرقات.. المجد لكْ، المجد لكْ"

انتهت مِن الطقوس قائلة وهي ترفع نظرها والدم يتساقط مِن عينيها السوداء ذات البؤبؤ الأحمر الّذي يشعُ نارًا "سأُذيقك مِن العذاب كؤوسًا يا عمار.. سأُذيقك مِن العذاب كؤوسًا، قتلت أمانة الشيطان الّتي حملتها بين ثنايا رحمي.. سأجعلك تدفع ثمنها غاليًا"

تأججت نيران الانتقام بِداخِلها لكِنها حاولت السيطرة علىٰ نفسها وتمالكت أعصابها وراحت تُعِد للانتقام الّذي ينتظر عمار.

لم تنجح الجِدة سُعاد في معرفة مكان الخريطة الّتي ستحل اللغز وتُنهي اللعنة، قلبت الغُرفة رأسًا علىٰ عَقِب، ولكِن بلا جدوىٰ.. استطاعت الحصول علىٰ جميع الأدلة الّتي احتفظت بِها زينة كُلّ هذه السنوات، لكِنها لم تفلح في العثور علىٰ مُرادها.

وسط انهماك الجِدة في البحث عن الخريطة داخِل غُرفة زينة الّتي قامت بتنظيفها بعدما أشعل عمار النيران بِها دق هاتف الجِدة الّتي تضعه علىٰ خِصرها، أسرعت الجِدة وقامت بالرد فورًا قائلة:

_ماذا بِكِ يا بشاير.. لِمَ تتصلي في هذا الوقت؟

تنهدت بشاير وقالت بصوتها المُتحشرج:

_أمامِك ثلاث أيام فقط إنْ لم تَجدين الخريطة وتُنهين اللعنة ستقوم نادرة بالانتقام مِن عمار علىٰ ما فعله بِرياض.

حدقت عيناي الجِدة قائلة:

_ماذا فعل، تأكدتِ مِما قُلتِه؟

قالت باستهزاء:

_نادرة تأكدت، قُمِ بإيجاد الخريطة قبل فوات الأوان.

قامت بإغلاق الهاتف وتوجهت مُسرِعة نحو غُرفة عمار وقامت بطرق الباب بِسُرعة ولم تنظر حتىٰ يفتح عمار ودلفت إلىٰ الداخِل قائلة:

_عمار..! عمار..!

لم يفِق عمار لكِنها واصلت النِداء في عِناد وإصرار حتىٰ فاق يتململ في فِراشهِ الحريري، أطل برأسه مِن تحت الغطاء وعيناه نصف مُغمضتين وقال بصوتٍ مفتور:

_جدِتي! ما الّذي أتىٰ بكِ إلىٰ هُنا في هذا الوقت؟

قالت بلهفة:

_ماذا فعلت بِرياض؟

انتفضت مِن فِراشهِ وقام جالِسًا وقال:

_كيف عرفتِ؟

انطلقت صارخة وهي تقول ببكاء:

_لِمَ فعلت ذلك، حذرتك ألا تُزعج زينة أو تتحدث عن رياض بسوء، لكِنك لم تسمع مني، ستموت يا عمار.. ستموت، نادرة لن تتراجع.

تقلص وجه عمار وبدت علىٰ ملامحِه الدهشة وقال:

_وما دخل نادرة برياض.

أجابت بدون تفكير:

_نادرة جِنيّة كانت تحمل في رحمها حفيد إبليس يا عمار، رياض أحد أحفاد إبليس، أنتَ استأجرت رحِم جِنيّة.

برزت عينا عمار أثر ما سمع وقال وهو يبتلع ريقه بصعوبة:

_كيف! ماذا تقولين يا جِدتي وكيف عرفتِ ذلك؟

تنهدت الجِدة وقالت:

_قُل لي ماذا فعلت بِرياض؛ كي أستطيع حمايتك مِما سيحدُث لك.

سيطرت علىٰ عمار حالته المرضيّة وبدأ يرتجف رُعبًا قائِلًا:

_لم أفعل شيء (جذَ علىٰ أسنانه وأكمل وهو ينتفض رُعبًا)

أنا فقط كُنت أُبعِده عن زينة؛ كي لا تُحِب أحدًا غيري، منذ ولادة رياض وزينة أصبحت بعيدة عني أكثر مِن قبل، تركت الغُرفة وذهبت إلىٰ غُرفة رياض بحُجة الاعتناء بِه وأعطت كُلّ حُبّها واهتمامها له.

(وصرخ قائلًا) زينة مِلكي أنا.. زينة لي وحدي؛ لِذلِك قُمت بِسد أنفاسه بقطعة قماش وتخلصت مِنه حتىٰ تعود لي وحدي.

لم تستطع الجِدة النطق، لكنها أخرجت الكلمات مِن فمها بِثقل بعدما استجمعت بعض قواها قائلة:

_لو لم أعثُر علىٰ الخريطة خِلال ثلاث أيام.. ستكون طعامًا للذئاب وقُربانًا تُقدمه نادرة لإبليس.

وأدارت ظهرها مُتجهة إلىٰ غُرفة زينة مَرّة أخرىٰ.

أما عن كريم فقد قررَّ أنْ يذهب بصحبة السيدة سهام القاضي إلىٰ عيادة الطبيب "حسام السفطي" للبحث عن دليل يستطيع مِن خِلاله اصطياد عمار بين شِباكه وأغلق مُذكرته بعد أنْ كتب بِها...

"بصفتي محامٍ أُعلِن للجميع أنَّ العالم لم يُنصِف الفُقراء، كان فقط مأوىٰ لأولئك الأغنياء، أما الفقراء فقد كان مقبرة دُفِنوا بِها حين ولدتهم أماتهم اللواتي ظنن أنَّهم سيكونون أكثر حظًا مِنهن في الحياة، لم يكُن هُنا حق أبدًا.. هُنا ظُلمٌ فقط.. هُنا مقبرة فقط تحوي الفقراء بعد أن تكفنهم الحياة بكفن الشقاء الغارقين بِه جميعًا، يتجرعون الظُلم مِن كؤوس ليست عادلة أيضًا تُسقي الأكثر فقرًا جرعات مِن الظُلم أكبر مِن الأقل، لم يعرف العدل للحياة طريق، هم فقط مَن تلتهب جِراحهم ويُجلدون بسوط الظُلم.. الأغنياء مِثل

عمار وحسام وغيرهم لم يروا مِن العالم سِوىٰ الرفاهية الّتي اعتادوا عليها منذ أن ولدتهم أمهاتهم.. أما الُفقراء لم يروا سِوىٰ الظُلم والاستعباد.. الذُل والإتجار بأنفسهم.. كانوا أيضًا مجرمين في حق أنفسهم.. هم ليسوا أبرياء؛ هم مجرمون في حق أنفسهم.. باعوها مِن أجل الحصول علىٰ بقايا لُقيمات الخُبز المُتبقية مِن أطباق الطبقات العُليا، هم أذنبوا بحق أنفسهم حينما أرادوا الهرب مِن تابوت الفقر المولودين بِداخِله، لكِنهم عادوا مدقوقين بمسامير القهر في نفس التابوت، أرادوا النسيان فـقدموا أنفسهم ذبائح وقرابين علىٰ أطباقٍ مِن ذهب إرضاءً لهؤلاء أمثال حسام وعمار وحمزة غيرهم.

الظُلم جريمة، لكِن الاستسلام للظلم كان جريمة أكبر يَستحقون العقاب عليها فَعاقبهم الله بمثلِ هؤلاء "

~~كريم إدريس~~

ثم راح في النوم هارِبًا مِن أفكاره اللعينة الّتي تُطاره، لم يكُن يومًا حلمه الشهرة والمال و.. و.. هو فقط كان يُحارب بقلب طفلٍ بريء تعهد في صغره أنْ يكون عونًا لكُلّ مظلوم ولم يخطر بباله يومًا أنَّه سيُحارب مجتمعًا كامِلًا راسِخ بِه الفقر.. مُستأصل الآمال والأحلام.

لم يخطُر بباله يومًا أن يكون مُحارِبًا في ساحة قِتال وحده بين ذئابٍ بشرية لا تعرف للرحمة ولا العدل طريق.

"الفصل التاسع عشر"

لن يذهب السعي أبدًا هباءً...

تِلك الخيوط المفقودة الّتي حاول كريم جمعها بكلِّ الطرق هي ما ستجعله يصل للحقيقة.

قتل.. اتجار بالبشر.. فقر، كلّ هذه الخيوط هل ستؤدي لمُجرم واحِد أم للحقيقة وجه آخر...؟

صباح السبت الخامس مِن مارس ٢٠٢١ دق جرس المنزل، لكِن لم يلقَ الطارِق أيّ إجابة، فجميع مَن في المنازل قد غادروا متوجهين إلىٰ صعيد مِصر؛ لحضور مراسم دفن عم والدة عمار، لكِن الجِدة وعمار بقوا.. ظلَّ الباب يطرق حتىٰ فاق عمار وهبط الدرج بسرعة وفتح الباب، ولكِنه فوجئ بساعي البريد يحمل له رسالة مبعوثة مِن مجهول.

قام بتأكيد الاستلام وأخذ الظرف وصعد الدرج متوجِهًا إلىٰ غُرفته.

دلف إلىٰ الداخِل وقام بفتح الرسالة الّتي استلمها قبل قليل.

"مرحبًا...

أردتُ إخبارك بشيء مُهم يا عزيزي.. اليوم الساعة الثانية عشر مُنتصف الليل سيصرح سيد الأسيوطي عن اسم قاتِل الطبيب حُسام السفطي".

كمش الورقة بين أصابِعه وألقاها علىٰ الأرض ثم دعسها بقدمه واستشاط غضبًا.

بعدما قرأ الرسالة أحس بقليل مِن الضيق فراح يدور في المنزل باحِثًا عن جِدته، لكن نعمة أخبرته أنَّها ذهبت لزيادة السيدة زينة والاطمئنان عليها.

عاد إلىٰ الطابق العُلوي ثانيًا متوجِهًا إلىٰ غُرفة الجِدة سُعاد، دلف إلىٰ الداخِل وراح يتجول في الغُرفة، لم يلفت انتباهه سِوىٰ ذاك الصندوق الخزفي الموضوع أعلىٰ المدفئة.. ذاك الصندوق الّذي ألح علىٰ جِدته مُنذ صغره بأنْ يفتحه ويرىٰ ما بِداخِله، ولكِنها رفضت ووعدته عندما يكبر ستعطيه إياه، تقدم نحو المدفئة وأشعل الحطب بِداخِلها وجلس أمامها وبيده الصندوق الخزفي، فتحه وراح يُقلب بِداخِله فلم يجِد سِوىٰ صورًا قديمة تجمع العائلة وبعض أنواع البخور النادرة الّتي جمعتها مِن مُختلف دول العالم.

علىٰ الجانِب الآخر وصلت الجِدة سُعاد إلىٰ المصحة النفسيّة الموجودة بها زينة وطلبت مُقابلة زينة.

دلفت إلىٰ غُرفة زينة الّتي كانت تجلس علىٰ الأرض تسند رأسها علىٰ الجِدار الخلفي والدموع تسيل مِن عينيها.

نطقت الجِدة قائلة:

ـأخبريني أين الخريطة يا ابنتي وأعدِك أنّني سأُخرِجِك مِن هُنا وسأجعلِك تُسافرين إلىٰ الخارِج بعيدًا عن عمار كما تُريدين.

التفتت زينة نحوها ومِن ثم قالت مُتحدية إياها:

_لن تحصلي عليها مهما حاولتِ.

صُدِمَت الجِدة وحدقت بعينيها قائلة:

_كيف عاد صوتِك؟

ابتسمت زينة ابتسامة ماكرة وقالت:

_لستِ وحدِك مَن يفتعل الأفاعيل، أنا أيضًا أستطيع افتعال ألاعيب مِثلِك.

اشتد الحديث بينهم قطع هذا الحديث الساخن صوت رنين هاتِف الجِدة سُعاد.

أجابت الجِدة فإذا بِنعمة تُخبِرها عن تسريب خبر انتقال السيدة زينة إلىٰ المصحة النفسية وقد نُشِر الخبر في الجريدة الإخبارية صباح اليوم.

أغلقت الجِدة الهاتف ومِن ثم أمسكت بياقة فستان زينة وراحت تصب بوجهها كلّ ما يواريه قلبها مِن حِقد وكراهية قائلة لها بغضب:

_أنتِ أيَّتها اللعينة مَن فعلتِ هذا.

أزاحت زينة الجِدة بعنف ثم قالت:

_نعم، أنا مَن فعلت هذا.

اشتد الحديث أكثر فأكثر وانتهىٰ بعودة الجِدة خائبة الآمال إلىٰ المنزل يُفتت القلق قلبها كلما نظرت إلىٰ الساعة وشاهدت عقاربها تلتف.

أما كريم فقد وصل إلىٰ عيادة الطبيب حُسام السفطي بِرفقة زوجته السيدة سهام القاضي وبدأ يبحث عن دليل يروي ظمأه الّذي طال كثيرًا، لكن ما لفت انتباهه هو شيء واحد لا يُذكر.. ذاك العُقب المُلقىٰ علىٰ الأرض بجوار مكتب الطبيب، تقدم كريم نحو المكتب ومِن ثم جلس القرفصاء وأمعن النظر وتأكد أنَّه عُقب لسيجارة لم يؤخذ مِنها سِوىٰ نفسًا واحِدًا أو اثنين فقط.

أخرج كريم منديلًا ورقيًا مِن جيب بنطاله والتقت عُقب السيجارة وقام بلفه جيّدًا وخرج مع السيدة سهام متوجهًا إلىٰ قسم الشُرطة لِمُقابلة الضابط "مُحمد مُعتز".

بعد نصف ساعة استطاع كريم مُقابلة الضابط "مُحمد" وأخبره عما حدث، لكن الحظ لم يُحالفه هذه المرّة فقد رفض الضابط بِشدة فتح ملف القضية مرّة أخرىٰ.

عاد كريم خائب الأمل، لكِن ثقته بِذاته لم تخب أبدًا فقد قرر الذهاب إلىٰ أحد المُختبرات وإجراء فحص الـ DNA لِـ اللُعاب الموجود علىٰ عُقب السيجارة.

مَرَّ النهار بِسلام علىٰ كريم الّذي حرقه الانتظار فهو في أشد الحاجة لمعرفة القاتِل المجهول، لكِنه ذُهِل عندما عاد إلىٰ المنزل وأخبرته والدته عن خبر انتقال زينة زوجة الطبيب عمار البحيري إلىٰ مصحة نفسية إثر تَعرُضها لِصدمة بعد موت ولدها.

بدأت الشكوك تجتاح عقل كريم عن موت الطفل خاصةً في هذا الوقت، لم يتردد عقله للحظة في توجيه الاتهامات إلىٰ نادرة وخصوصًا بعد معرفته بتردد العجوز بشاير علىٰ البيت مِن قِبل نِعمة الّتي استطاع وبصعوبة بالغة الوصول إليّها عن طريق "طلعت" سمسار الطبيب حسام السفطي وأخذ مِنها معلومات عن عملية تأجير نادرة لرحمها وعن إقامتها طوال فترة الحمل بمنزل الطبيب عمار وتحت رعاية خاصة مِن قِبل زينة الّتي طالما كانت تحلم بأنْ تُصبِح أُمًا.

لم تمُرّ الليلة بسلام علىٰ عمار الّذي يعد الدقائق في انتظار موته فقد أخبرته الجِدة سُعاد عن الخريطة التائهة الّتي أخفتها زينة، لم يستطع عمار تصديق جِدته فـ

حُبه الشديد لِزينة قد أعمىٰ نظره ولم يستطع رؤية أيّ شيء سِوىٰ حبّه المجنون لها.

لكن الجِدة رفضت الاستسلام فقد قلبت المنزل رأسًا علىٰ عَقِب بمساعدة نعمة، لكن جميع مُحاولاتهم باءت بالفشل.

في المصحة النفسية....

كانت ليلة مُقمِرة جلست علىٰ ضوئها زينة شفتاها ترتعشان تحت أنفها المُحمر يسيل العرق فوق جبينها تنتفض رُعبًا.. لم تُفارق خيالها صورة ابنها رياض وصوته الّذي يدوي صداه في أُذنِها.. فهو الشخص الوحيد الّذي استطاع كسر حِدة وحدتها وشاركها أيامها، كان قلبها يتأجج نارًا ويزداد كُرهها لعمار كلما تذكرت تِلك الليلة الّتي هددها بِها أنْ يقتله إذا ذكرت اسم نادرة أمامه ثانيًا، لكن شكوكها كانت نحو تِلك الزُجاجة الّتي أعطتها لها بشاير قبل وفاته بيومين، فقد قررّت الذهاب إلىٰ بشاير مهما كلفها الثمن.

كان الوقت قبيل الفجر لا يقطع هدوئه إلا صياح الديكة الّتي تقطن التقفيصة المُلاصِقة لمنزل نادرة ووالدتها بشاير الخشبيّ، وصلت زينة إلىٰ أمام مصطبة المنزل تقدمت خطوتين إلىٰ الأمام، لكِنها كانت مُترددة.. استطاعت السيطرة علىٰ حالها ومِن ثم صعدت الدرجتين الموجودتين أمام المنزل وطرقت الباب في هدوء، فتحت بشاير عينيها ببطء ومِن ثم أزاحت الغطاء عن رأسها الغطاء وقامت تمشي بخطواتٍ مُتثاقِلة نحو الباب، فتحت الباب ببطء مما أحدث صوتًا مُزعجًا.

فوجئت بزينة تقف أمامها، فركت عيناها بِشدة ومِن ثم قالت:

_زينة! ما الّذي أتىٰ بكِ إلىٰ هُنا في هذا الوقت المتأخر؟

أخفضت زينة بصرها ومِن ثم قالت:

_أستطيع الدخول؟

هزَت بشاير رأسها موافقة ثم دلفت زينة إلىٰ الداخِل وجلست علىٰ الأريكة الخشبيّة الموضوعة خلف الباب ثم جلست بشاير أمامها علىٰ الأرض، تنهدت زينة وقالت:

_لِمَ..؟

تقلص وجه بشاير وبدا عليه علامات الاستفهام ثم قالت:

_ماذا؟

اندفعت زينة بسرعة وقالت:

_لِمَ قتلتِ ابني؟

ضحكت بشاير ضحكة جلجلت المنزل وقالت باستهزاء:

_قتلت ولدك؟ تقصدين ولد نادرة ابنتي.. أنا اعتنيت بِه ليس لأجلك ولا لأجل زوجك المجنون.. اعتنيت بِه لأجل ابنتي فقط الّتي تركته عندكم أمانة، لكنكم مخادعون.

قرضت زينة أسنانها وقالت بغضب:

_هذا ولدي أنا، لا دخل لابنتك بِه.

ضحكت ضحكة شريرة ثم قالت:

_هذا ليس ابنك.. هذا حفيد إبليس وابن نادرة، زوجِك المجنون قتله وسينال جزائه خلال يومين (ولاحت في وجهها بإصبعيها السبابة والوسطىٰ وأكملت) يومين فقط وستلحق بِه لعنة نادرة.

صُعِقت زينة بِما سمعته فهي بالفعل لاحظت تصرفات الطفل الغريبة والبكاء المستمر وتحسنه إثر الخُرافات اللّاتي مارساها بشاير والجِدة سُعاد، وعادات نادرة الغريبة أثناء فترة الحمل، لكن لم يخطُر ببالها يومًا أنْ يحدُث ما تسمعه الآن، خرجت زينة ولم تنطق بكلمة واحدة، لكنها لم تصدق ما قالته لها العجوز بشاير ثم عادت مرَّة أخرىٰ متلصصة الخُطى إلىٰ المصحة النفسيَّة؛ كي

لا يشعُر أحد بغيابها.

☆☆☆

بدأت الشمس في الصعود وبدأت تبعث بالحرارة، تسرب شُعاع الشمس إلىٰ غُرفة كريم ، نهض كريم واقِفًا مِن فِراشهِ بعدما نظر إلىٰ الساعة المُعلقة أمامه علىٰ الجِدار وذهب متوجِهًا إلىٰ المُختبر؛ ليستلم تقرير لفافة التبغ الّتي وجدها أمس بمكتب السيد حسام السفطي.

بعد مرور ساعة بالضبط وصل كريم إلىٰ المُختبر واستلم التقارير الخاصة بِلُعاب المُتهم، لكِن الغريب في الأمر أنَّ التقرير أثبت أنَّ اللُعاب الموجود علىٰ لفافة التبغ كان لأُنثىٰ حيثُ أُثبِت مِن خِلال فحص الـ **DNA** المنزوع مِن اللُعاب أنَّ كروموسومي الجِنس (**XX**) وليس (**XY**) مِما أثار شكوكه نحو نادرة مرَّة أخرىٰ، لكِن الشيء الّذي خطر ببال كريم في هذه اللحظة ليؤكد شكوكه هو فحص وتحديد ذمرة دم المُتهم مِن خلال اللُعاب المُجفف وبعدها سيتم مُقارنة النتائج مع التقرير الّذي احتفظ بِه بعد إجرائه لجميع الفحوصات الخاصة بها وبعائلة عمار أثناء القضية ٥٠٧.

بالفعل عاد كريم إلىٰ المُختبر مرَّة أخرىٰ وطلب تعيين ذمرة دم الشخص الّذي وجِد لُعابه علىٰ لفافة التبغ.

☆☆☆

لم يستطع عمار الخروج مِن البيت ولا تأدية عمله فلم يعُد أمامه سِوىٰ ساعات ويُغادر هذا العالم، وإلىٰ الآن أيضًا لم تستطع الجِدة سُعاد إيجاد الخريطة الّتي أخبرته عنها، وفي نفس الوقت تلك الرسالة الّتي تلقاها صباح أمس ولا يعرف مَن قام بإرسالها له.

لم يستطع الجلوس منتظرًا نهايته فقد قرر الذهاب إلىٰ زينة؛ ليتأكد مِما أخبرته بِه جِدته.

بعد نصف ساعة وصل عمار إلىٰ المصحة النفسيَّة وطلب مُقابلة زينة.

"الفصل العشرون"

يُقال.. دائمًا ما يعود المجرم إلىٰ مسرح الجريمة.

لذلك سنرىٰ ماذا سيفعل كريم مِن أجل اصطياد القاتِل...

لقد كانت المواجهة بين عمار وزينة ليست متوقعة تمامًا، فقد اكتشف عمار كذب جِدته بمجرد أن وطئت قدمه بغرفة زينة ووجدها جالسة مُنكسة الرأس شفتاها ترتعشان مِن شِدة الخوف، اقترب عمار وجلس القرفصاء بجانبها، جلسا في صمت لفترة طويلة قطع ذاك الصمت صوت الطبيب الّذي دلف إلىٰ الغُرفة قائلًا:

_أستاذ عمار!

التفت عمار نحو الطبيب وقال:

_أخبرني أيّها الطبيب.. كيف حال زينة؟

تنهد وهو يُشير نحوها قائلًا:

_كما ترىٰ، الصدمة كانت شديدة، لكن لا بأس ستتحسن إن شاء الله.

هز عمار رأسه بيأس وقال:

_إن شاء الله.

وخرج دون أن يسأل زينة سؤال واحد، لكن الأمر لم يمر علىٰ زينة هباءً فهي تأكدت تمامًا مِما قالته بشاير وتأكدت مِن قتله لولدها كما أخبرتها العجوز.

لم يكُن أمام زينة سِوىٰ طريق واحد تسلكه؛ للانتقام مِن عمار.. فقد قررَّت الاتحاد مع نادرة لتُطفئ تأجج نيرانها.

في تمام الرابعة والنصف عصرًا تلقىٰ كريم اتصالًا هاتفيًا مِن نعمة أخبرته بِه عن تِلك الرسالة المُنكمشة الّتي وجدتها بغرفة عمار وعن تِلك الخريطة الّتي تبحث عنها الجِدة.

لم يفهم كريم ما أخبرته بِه نعمة فيما يخص تِلك الخريطة، لكِنه تأكد مِن شكوكه حول عمار في قضية مقتل الطبيب "حسام السفطي" فالمجهول الّذي قام بإرسال الرسالة صباح أمس هو كريم قام بإرسال تِلك الرسالة ووضع في خطته احتمالين؛ إما أن يُحاول عمار الهروب مِن مصر قبل صباح اليوم وبهذا يُثبت أنَّه القاتل.. وإما ألا يُعير الرسالة أيّ اهتمام كما فعل ويُثبت تورطه في الجريمة الثانية «قتل رياض» بعد أنْ استطاع الحصول علىٰ التقرير الطبّي لموت الوليد الّذي قام بتزويره قبل أن يصل إلىٰ زوجته زينة وأثبت أنَّه توفى بمتلازمة موت الوليد« SIDS ».

ومِن هُنا رسم خطته الجديدة للإيقاع بنادرة وذهب متوجهًا إلىٰ بيتها حامِلًا إليها التقرير الطبّي الحقيقي.

في تمام الساعة السادسة مساءً كان كريم يقف أمام منزل نادرة.. صعد الدرج وطرق الباب.

قامت بشاير ومشت بخطواتٍ مُتثاقلة نحو الباب ومِن ثم فتحت الباب، ابتسمت ابتسامة ماكرة وقالت:

_تفضل يا سيادة الصحفي (صمتت قليلًا وأردفت قائلة) أو سيادة المحامي صاحب قضية نادرة ابنتي.

لم يُفاجئ كريم بِما سمعه وقال:

_لِذلك حاولتِ تضليلي وأبعدتِ الشبهة عن ابنتك وشوهتي البصمات الموجودة علىٰ الجريدة.. أليس كذلك؟

ضحكت وقالت:

_ليس بالضبط، حاولت تضليلك نعم، لكن البصمات ليست مشوهة.

شُلت حركة كريم لبضع ثوانٍ أثر الصدمة وقال باندفاع:

_ماذا تقصدين؟

أطلقت زفيرًا وقالت:

_أقصد أنَّ الضابط مُحمد عِندما أخبرك أنَّها ليست بصمات بشريّة كان مُحِقًا.. نادرة جِنيّة.

لم يستطع كريم تمالك أعصابه أكثر فصاح قائِلًا:

_بماذا تهذين أنتِ؟

ابتسمت ابتسامة ساخرة وقالت:

_اهدأ.. اهدأ، أنا سأشرح لك كُلّ شيء، اجلس أولًا لنتفاهم قبل أن تُنهي نادرة طقوسها وتأتي إلىٰ هُنا.

دلف كريم إلىٰ الداخِل وجلس بالقرب مِن الباب علىٰ الأريكة الموضوعة خلفه.

لم ينتظر كريم أن يطول الصمت وقال مُدفِعًا:

_مِن أين عرفتِ ما قاله الضابط مُحمد؟

ألقط بنظرها نحو كريم وقالت:

_اهدأ.. سأُخبِرك كُلّ شيء.

أولًا نادرة ليست ابنتي كما تعتقد.. نادرة ابنة زوجي (أخذت نفسًا عميقًا وأكملت)

وأنا في سن السابعة عشر كنت أعمل خادمة في منزل السيد "محمد عليوة" وحرمه السيدة "سُعاد البحيري" كانت السيدة سُعاد تواجه مشاكِل في حياتها عديدة وكانت تُريد أن تُنجِب أخًا لـ "حسن" ابنها مِن السيد "عبد التواب البحيري" جِد عمار ولحسن الحظ كان زوجي عرافًا يعمل بالسحر وما شبه ذلك، لكِنه كان ليس بارعًا في هذه الأشياء إلىٰ حد كبير.. هو كان يضحك علىٰ عقول الجهلاء بتِلك الأحجبة والمُخططات الّتي كان يخُطها وبالجن الّذي استطاع بصعوبة معرفة إحضاره وبالصدفة بعدما أحضرت له السيدة سُعاد حملت بطفل لكن الحمل لم يكتمل.. كان زوجها السيد "محمد عليوة" مولِعًا بالقراءة والعيش في عالم الخيال والعلم والخرافات وبيوم مِن الأيام طلبت مني السيدة سُعاد إحضار زوجي لمقابلة السيد "محمد عليوة" زوجها وبالفعل أحضرته وقام بمقابلته واتفقا علىٰ شيء لم يستطع حتىٰ الآن مخلوقًا اكتشافه وكتباه بمخطوطة سِريّة خبأها في مكان سريّ ببيت السيدة سُعاد.. هذا المخبأ السريّ له خريطة تُريد نادرة الوصول إليها لتعود إلىٰ عالم أمها مرّة أخرىٰ (همست في أذنهِ قائلة) لقد كان زوجي متزوجًا مِن جِنيّة عاشقة مِن العالم

السُفلي وأنجب مِنها نادرة، لكنه رفض الاستسلام لها فيما بعد والعيش معها في عالمها السُفلي؛ لِذلك قتلته وأنا أُجبِرتُ علىٰ تربية نادرة خوفًا مِن أذية أمها لي.

(ارتفع صوتها مرّة أخرىٰ وأكملت)

لِذلك نادرة وحسب الطقوس الّتي تقوم بها لعبادة الشياطين كانت مُلزمة أن تُنجِب طِفلًا زهوريًا لديّه خط مُتصل يقطع راحة يده بشكل عرضي، له علامة علىٰ مستوىٰ لسانه بحيث يكون ملفوفًا _أيّ يقطع صفحة لسانه_ خط طولي تتميز عيناه ببريق خاص يرثهم مِن أمه وكان رياض يرث تِلك الصفات مِن أمه زينة ابنة "مُحمد عليوة" مِن امرأة أخرىٰ غير السيدة سُعاد؛ لذلك قامت نادرة بتأجير رحمها للحصول علىٰ الطفل حفيد إبليس ومِن خِلاله تستطيع العودة لعالمها مرّة أخرىٰ، ولكن قبل أن تذهب لعالمها ستقتلني انتقامًا لأمها الّتي رفض أبوها الخضوع لها ولعالمها لأجلي.

لم يستطع كريم تصديق ما قالته العجوز بشاير ونهض واقِفًا ووجه نظرته نحو الباب، ولكن قبل أن يتحرك أردفت بشاير قائلة:

_أخبرتك اليوم نعمة عن الخريطة الّتي تبحث عنها الجِدة أليس كذلك؟

التفت كريم نحوها وعلامات الدهشة قد اجتاحت ملامحه ثم قال:

ـمِن أين عرفتِ ذلك؟

قالت بهدوء وهي تهز رأسها:

ـكما عرفت ما أخبرك إياه زميلك الضابط مُحمد.

جلس كريم مرّة أخرىٰ علىٰ الأريكة وقال:

ـكيف عرفتِ؟

ابتسمت وأكملت:

ـهذه الخريطة رسمها والِد زينة وأعطاها إياها في صغرها قبل وفاته؛ كي يُأمن لها مُستقبلها، لكنه لم تسمح له الفرصة بعد بإخبار زينة عما يوجد في تِلك الخريطة وإلىٰ أين تؤدي.

أما كيف عرفت فأنا مَن طلب مِنها إخبارك بعدما جاء إليَّ الضابط "مُحمد" وأراد معرفة صِلة نادرة بالطبيب حسام السفطي وأراد التأكُد بِما أخبرته أنت عن نادرة وعن شبكة الإتجار بالبشر الّتي كان يقودها الطبيب.

هو يعرف جيّدًا صِلة نادرة بالعالم السُفلي أنا أخبرته؛ كي لا يتورط معها بفتحه للقضية.. لِذلك قام بإغلاق ملف القضية تمامًا.

ابتلعت كريم ريقه الّذي تحول إلىٰ علقم إثر ما سمعه ومِن ثم قال:

_ومَن الّذي قتل الطبيب حسام، نادرة؟

أجابت بسرعة:

_لا.

رفع حاجِبه الأيسر وقال في تعجُب:

_مَن..؟

هزت رأسها نافية وقالت:

_لا أعرف، لكن نادرة لم تقتله.

قام كريم وتوجه نحو الباب وقبل أن يفتح فاجئه حديثها عندما قالت:

_ستنقِذ حياتي أليس كذلك؟

التفت خلفه ونظر إليها ومِن ثم قال بيأس:

_ليس بيدي شيء.

قالت:

_اذهب إلىٰ زينة وأخبرها أنَّك ستُساعدها في الانتقام مِن عمار الّذي قتل ولدها وهي سَتُخبِرك عن مكان الخريطة.

(تنهدت بيأس وأكملت) احصل عليها يا ولدي وانقذ حياتي وانهِ هذه اللعنة وأنا أعدك أنني سأساعِدك لمعرفة القاتل وإنهاء الإتجار بالفقراء.

خرج كريم تائهًا فهو كان يظُن أنَّه يُحارب لأجل شخص واحد فقط، لكنه اكتشف أنَّه يُحارب لأجل مُجتمع.. واليوم اكتشف أنَّه سيُحارب عالمًا آخر يمكُن وبكُلّ سهولة ألا يبقىٰ بعدها حيًّا، لم تكُن حياته مهمة بالنسبة له بقدر أهميها بالنسبة لوالدته، هو لم يُفكِر في نفسهِ كان باله مشغولًا فقط علىٰ والدته دائمًا فهو يحيَّا لأجلِها.. لأجلها فقط ويُحافِظ علىٰ نفسه أيضًا لأجلها.

ولىٰ كريم وجهه نحو طريق الحق الّذي أقسم أمام الله أنَّه سيُحارب لأجله فقد أخذت بِه قدماه إلىٰ مكان المصحة النفسيّة لمقابلة زينة.

دلف كريم إلىٰ الغُرفة الموجودة بها زينة.. كان هناك فوق ذاك الوجه الملائكي دموع كثيرة ناجمة عن الحُزن والتعب الّذي أنهكها وجعلها مُستلقية في فِراشها يفتت الحُزن داخِلها.

تنحنح كريم فانتبهت زينة وهبّت واقفة، ولكن قبل أن تنطق بادر كريم قائِلًا:

_مرحبًا، أنا....

قاطعته زينة قائلة:

_كريم إدريس، محامي نادرة بقضية رقم ٥٠٧.

ابتسم كريم ابتسامة خفيفة ومِن ثم قال:

_الحمد لله وفرتِ وقتًا طويلًا كنت سأشرح لكِ فيه عني.

بادلته الابتسامة ومِن ثم قالت:

_تفضل اجلس.

(تنهدت وأكملت بعدما جلس كريم علىٰ الكُرسيّ الموضوع بجانب سريرها)

ماذا تُريد مِني؟

قال كريم مُندفِعًا:

_أريد معرفة مكان الخريطة؛ لأستطيع مُعاقبة عمار علىٰ ما فعله بولدِك.

صُدِمت زينة وقالت وهي مُتلهفة:

_كيف عرفت الخريطة.

أجاب بسرعة قائِلًا:

_ليس مُهمًا كيف عرفت، عمار قتل ابنك البريء وقتل الطبيب حسام زميله وقتل زوج نادرة.. ماذا تنتظرين (صمت قليلًا وأكمل)

تنتظرينه يقتُلِك أيضًا؟

نظرت بيأس وقالت:

_حياتي لم تعُد مهمة بالنسبة لي، قُتِل ولدي ومِن قبله قُتِلت جِدته أبي وأمي، علام أخاف إذن؟

لم يُفاجئ كريم كثيرًا لِمَ سمعه، لكن فضوله جعله يَسألها قائِلًا:

_ماذا؟

حكت له زينة ما أخبرته لها الجِدة ذاك اليوم ووعدها بمُعاقبتهم علىٰ ما فعلوه.. وبعدما قطع وعدًا علىٰ نفسه أمامها أخبرته عن مكان الخريطة.

ولُحسن الحظ قبل أن يخرج كريم مِن غُرفتها تلقىٰ رسالة مِن المُختبر بضرورة التوجه لأخذ نتائج ذمر الدم، التفت كريم نحوها وقال بابتسامة:

_اطمئني، وصلتني رسالة مِن الضابط المسئول عن قضية مقتل الطبيب "حسام السفطي" الّذي أجرىٰ لكِ عملية تأجير الرحم أخبرني بِها أنَّ فريق البحث الجنائي سيقوم بفحص العيادة الخاصة بالطبيب حسام غدًا في تمام الساعة السادسة

وسيتم القبض علىٰ عمار بعدها فورًا إن شاء الله.

تلعثمت زينة ثم قالت بلهفة:

_ حقًا؟

هز كريم رأسه مُؤكِدًا ما قاله وعلى وجهه ابتسامة مرسومة.

أدار ظهره وخرج مُتوجِهًا نحو المُختبر؛ لأخذ باقي التقارير.

بالفعل حصل كريم علىٰ النتائج، لكِنه تعمد عدم فتح التقرير علىٰ الفور وانتظر حتىٰ عاد إلىٰ المنزل.

عندما وطئت أقدام كريم علىٰ أرض بيته كانت الساعة قد دقت العاشرة وسبع دقائق مساءً، توجه إلىٰ غُرفته وقام بإحضار التقارير السابقة الّتي حصل عليها عن طريق الطبيب "سراج" وقام بمقارنة جميع التقارير حتىٰ تأكدت شكوكه.

الثانية عشر مُنتصف الليل تلصص كريم الخُطىٰ؛ كي لا تشعُر بِه والدته ونزل متوجِهًا إلىٰ عيادة الطبيب "حسام السفطي".

دلف كريم إلىٰ العيادة وقام بفتح المصباح قائِلًا:

_في لعبة الشطرنج يُقال " أحيانًا يكون هناك حجر صغير إن خسرتَه سقطت قلاعك وخسرت المعركة.. لا تستهن بالصغار، فبعض الأحجار الحقيرة قد تهدم القلاع والحصون، وتسقط الوزراء من علياهم"

لِذلك لم أستهن أبدًا بالحجر الصغير الّذي مسكته، بالرغم مِن اعتمادي الكبير علىٰ لُغة الجسد، لكنني كُنت واثِقًا مِن نفسي، واثِقًا مِن خِطتي.. انتظرتُ طويلًا هذه الدقيقة يا زينة.

كانت علامات الصدمة تأكُل في ملامح زينة أكل الذئاب، وكاد قلبها أن ينفجِر مِن شِدة نبضه وراح صدرها يعلو ويهبط وقالت بيأس:

ـكُنت أعلم أنَّ زيارتك كانت طُعمًا لاصطيادي يا كريم ، لكنني رفضت الإنصات لعقلي هذه المرّة، لكن المفاجأة الكُبرىٰ هي أنّي هُنا لأستطيع منعك مِن الوصول إلىٰ الخريطة الّتي أخبرتك عن مكانها بكلِّ سهولة (ثم ضربت بيدها مقدمة رأسها وأكملت) ما أغباني...!

نظر لها ثم قال:

ـلِمَ قتلتِه؟

أخرجت يدها مِن حقيبتها قائلة وهي ترفع الخِنجَر مصوبة إياه علىٰ صدره:

ـسأُرسِلك له.. هو سيُخبِرك.

أوقفتها السيدة سهام الّتي تلقت اتصالًا مِن كريم أخبرها فيه بضرورة التوجه إلىٰ العيادة فورًا.

وبعد مرور نصف ساعة ألقىٰ الضابط "مُحمد معتز" القبض علىٰ زينة واصطحابها إلىٰ مركز الشُرطة.

لم تنهِ خطة كريم بعد فقد واصل السير مُتوجِهًا إلىٰ مكان الخريطة؛ لإنقاذ العجوز بشاير مِن الموت.

في تمام الساعة الثالثة صباحًا استطاع كريم بصعوبة بالغة الوصول إلىٰ حديقة منزل عمار البحيري.

توجه كريم نحو الغُرفة الخلفية الّتي أخبرته عنها زينة، لكِنه توقف قبل الذهاب إليها إلىٰ أمام الشجرة الّتي دفنت زينة أسفلها الخريطة والمُفتاح الّتي عثرت عليه في مِعطف أبيها.

بعد حوالي عشر دقائق دلف كريم إلىٰ الغُرفة الخلفيّة وقف أما خزانة ثياب ذات مرآة أصابها الاصفرار وعدم الوضوح، نظر حوله فوجد السرير النحاسي القديم الّذي أخبرته زينة عن مكانه، تحرك للأمام حوالي ثلاثون سنتي مِترًا ومِن ثم نزع اللوحة المُعلقة بجانب السرير، دلف كريم إلىٰ الداخِل وسار علىٰ امتداد الممر حتىٰ استطاع الوصول إلىٰ القبو.

نزل السُلم الخشبيّ وقام بفتح الأضواء، بدأ يبحث عن الأسهم المرسومة علىٰ الأرض لمدة تُقارب النصف ساعة.

أخرج الخريطة الّتي أخذها مِن تحت الشجرة المُرتخية الأغصان كما أخبرته زينة بالضبط ثم قام بفردها وتتبع المكتوب بِها كان كالتالي...

"سِر يمينًا تجاه الشمال ومِن ثُم توقف قليلًا وسِر إلىٰ الجِهة الغربية حيث تغرب الشمس وبالمُنتصف ستجِد نُقرة صغيرة ضع أطراف أصابع قدمك اليُسرىٰ بِداخِلها، قُم بلف قدمك عكس الاتجاه الواقف بِه وسِر خمس وعشرون سنتي مِترًا ثم توقف، بالمنتصف حيث تشرق الشمس في الجهة الشرقية ضع قدمك اليُمنىٰ وانتظر بضع ثوانٍ"

وضع كريم قدمه وانتظر لبضع ثوانٍ فوجد قدمه قد انخفضت إلىٰ أسفل بضع سنتي مترات، أزاح قدمه ثم قام بالحفر حتىٰ ظهر الصندوق بوضوح.

أخرج كريم الصندوق ببطء ثم نفث الغبار الموجود عليه وانتظر عِدة لحظات ومِن ثم قام بفتح الصندوق، ظل يحدق بالصندوق لِمدة تُقارب الثلاث دقائق، اقترب مِن الفتحة الموجودة بجانب النُقرة والّتي كانت مُقابلة لهالة القمر تُسرِب ضوءً خفيفًا مُسلط علىٰ النُقرة، نظر في ساعته فقد كان الليل يوشك علىٰ الانتهاء.

أخرج المُفتاح بسرعة وقام بفتح الصندوق فأول ما رآه كريم هو ذاك الخِطاب الّذي لم يعرف محتواه أحد حتىٰ الآن.. كانت ورقة صفراء بالية مكتوبة بخط اليّد كالتالي...

" العالم مُخيف.. لم أكُن أتوقع أنَّني بهذا الضعف الرهيب ولم أشعُر بالرعب مِن أيّ كائِن علىٰ وجه الأرض بقدر خوفي مِن البشر.. البشر الّذين يؤذون بعضهم لبعض دون سابق إنذار، لم يكُن تمردي علىٰ هذا الكوكب وهؤلاء الناس لمجرد حدث هيّن، لقد اندلعتُ وسط تيارات هذا الكوكب بمفردي، لم تكُن هُنا أيّ يد تنقذني أو طوق نجاة أتعلق بِه، هذا الكوكب الّذي أردتُ نقل الحياة إليه لم يكُن كوكبًا عاديًا، بل كان مرآة تعكس لي هيئتي الحقيقية بأنّني لا أنتمي لهؤلاء الوحوش المنعوتة بالبشر؛ لذلك كان بحثي كامِلًا علىٰ البشر.. الكوكب الّذي اكتشفته وأردت نقل الحياة إليه كان يتطلب عليَّ أن أقوم بتجربة تُثبت أخطر الكائنات الموجودة علىٰ سطح الأرض ولم أجد أكثر خطورة مِن البشر؛ لذلك قُمت بالاستعانة بقبيلة مِن قبائل الجِن عن طريق مُساعدي الآمين السيد "صالح" الّذي كان معي خطوة بخطوة في إجراء التجربة والبحث وخاطر بحياة ابنته "نادرة" صاحبة الثماني سنوات، لكِن اللعنة قد حلّت بينا فلم نستطع السيطرة علىٰ هذه القبيلة وتفاقم عددها وتفشوا كالوباء بين عائلتي.. لم يكُن هدفهم هو نفس هدفي، كان هدفهم الخراب الّذي سيلحقونه بالبشر وكنتُ أنا العصا السحريّة الّتي ساعدت في تحقيق مُرادهم، اللعنة لا زالت موجودة.. أكتب هذا الخِطاب قبل وفاتي لإعطائه لكِ يا ابنتي.. أنتِ مَن ستحررين العائلة مِن اللعنة الّتي ستلحق بهم،

إنْ استطاعتِ الحصول علىٰ هذا الخِطاب فعليكِ بحرق جميع التماثيل الموجودة بالقبو جميعًا وهُنا ستحترق تِلك المواد الّتي جمعتها مِن مختلف بِقاع الأرض لإثبات فكرة بحثي العلمي، كنتُ أخطِط لنقل حياة بدون بشر.. عالم أصنعه لنفسي وأستطيع إجراء تجاربي دون أن يتهمني بشريًا بالجنون مِن كثرة ولعي بالقراءة والبحث، لكني أعترف أنَّني استخدمت الطريقة الخطأ لكن لم يكُن أمامي حلٌ آخر.

اللعنة بالتماثيل عليكِ بحرقها يا ابنتي... "

لقد كان خِطابًا صادِمًا بالنسبة لكريم ، لكنه قام واحتفظ بالخِطاب وقررَّ حرق التماثيل بعدما أخبر السيدة سهام بإخبار الشُرطة.

بعد مرور عشرون دقيقة خرج كريم مِن القبو مُحتفِظًا بالخِطاب الّذي وجده.

☆☆☆

واحد يناير ٢٠٢٢ الساعة التاسعة صباحًا في محكمة شمال القاهرة، قضية رقم ٧٠١ جنايات القاهرة، محكمة...

بدأ كريم حديثه بعدما سمح له القاضي بالمُرافعة قائِلًا:

_قال تعالىٰ بسم الله الرحمٰن الرحيم ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ ﴿٤٥ المائدة﴾

صدق الله العظيم.

سيدي القاضي إنَّ قضية مقتل الطبيب "حسام السفطي" المُتهمة بقتله السيدة "زينة محمد عليوة جاد الله" قضية قتل مع سبق الإصرار والترصد باعترافات كاملة قامت المُتهمة بالإفصاح عنها، فالمتهمة قامت بالاعتراف بجريمتها والدوافع الّتي قامت بالاعتراف بها قائلة "أنَّ الطبيب حُسام السفطي أشهر أطباء النسا والتوليد علىٰ مستوىٰ الجمهورية والّذي قام بإجراء عملية تأجير الرحم لها قام بتهديدها بإخبار الشُرطة عن إجراء العملية لها وحرمانها مِن ولدها الّتي انتظرت مجيئه خمس سنوات؛ لِذلك خططت لقتله عن طريق زيادة جرعة حبوب الربو الّتي أجبرته علىٰ أخذها بعدما قامت بتقييده في الكُرسيّ

الموضوع أمام مكتبه الخشبيّ ومِن ثم قامت بفك الأحبال بعدما تأكدت مِن موت الطبيب نهائيًا وحرقت الحبال.. وقد قامت بمساعدتها الطبيب " صديق القاضي" شقيق زوجة المجني عليه بتزوير وتبديل تقرير الطبيب الشرعي قبل خروجه مِن المُختبر، كما قامت بالاعتراف أيضًا بقتلها للمدعو "عوض الله جابر محفوظ عبد القادر" زوج السيدة الّتي قامت بتأجير رحمها عن طريق إعطائه لإبر مُخدرة بعدما قام بتهديدها أيضًا بإفشاء السِر الّذي خبأته وقامت لأجله بقتل الطبيب "حسام السفطي" بعد خِلافهما علىٰ المبلغ الباقي له وقدره خمسون ألف جنية الّذي مِن المُفترض استلمه بعد عملية الولادة مباشرةً، لكن المُتهمة وزوجها لم يقوموا بالدفع.

وجاء في تقرير الطبيب الشرعي أنَّه عن طريق اللُعاب الّذي وجِد في مسرح الجريمة علىٰ لفافة التبغ تم تحديد ذمرة الدم عن طريق فحص الـ **DNA** وأثبت أن ذمرة دم المُتهم مِن فصيلة (**O**) المُطابقة لذمرة دم المُتهمة "زينة محمد عليوة جاد الله".

وبصفتي مُحامي الدفاع عن المجني عليه والّتي قامت بتوكيلي السيدة سهام القاضي زوجة المجني عليه أُطالِب بأقصىٰ عقوبة للمُتهمة" زينة محمد عليوة جاد الله".

بعد نصف ساعة مِن جملة "الحُكم بعد المُداولة" نطق القاضي بالحُكم قائِلًا:

_بعد الاطلاع علىٰ الأوراق المُقدمة واعتراف المتهمة بقتل المجني عليه عمدًا مع سبق الإصرار والترصد حكمت المحكمة حضوريًا بإحالة أوراق المُتهمة "زينة محمد عليوة جاد الله" إلىٰ فضيلة المُفتي.

رُفِعت الجلسة...

الرابع مِن فبراير ٢٠٢٢ حكمت المحكمة حضوريًا علىٰ المُتهم عمار حسن عبد التواب البحيري بالسجن لمدة خمسة عشر عامًا مع الشُغلِ والنفاذ بعد أن تم القبض عليه وقام بالاعتراف بجميع جرائمه هو وشركاه الطبيب "قاسم سعيد السيد عبد ربه" والطبيب "عمر سعد حسن جاد " في عمليات الإتجار بالبشر الّذين قاموا بإجرائها بمساعدة الطبيب "حسام السفطي".

أما عن نادرة فقد ماتت محروقة إثر حرق التماثيل مباشرة والجِدة سُعاد أُصيبت بشلل نصفي وهي موجودة الآن بأحد دور المسنين.

خرج كريم مِن باب المحكمة وعاد إلىٰ بيته وقام بفتح رسائله كاتبًا...

" لقد نجوت مِن الموت في الحرب الّتي لم تنتهِ بعد، رُبّما انتهت بالنسبة للجميع أما بالنسبة لي فلم تنتهِ.. لطالما كان الظُلم والفقر لا زالوا راسخين في المجتمع فإن الحرب لم تنتهِ بعد، لطالما لا زال الفقراء يعيشون علىٰ حافة شفرات مشرط الطبقات العُليا فإن الحرب لم تنتهِ بعد.

تعهدتُ في صغري أنْ أقف في صف المظلوم وأحارب لأجل العدالة.. وسأظل أُناضِل لأجل هؤلاء الّذين لم يجدوا عونًا لهم فلم يجدوا حلًا أمامهم سِوىٰ الإتجار بأنفسهم.

قيل قديمًا أنَّ الفقر ليس عيبًا.. نعم لكنه جريمة يقترفها الفقير في حق نفسه، الاستسلام الّذي رفع رايته كان جريمته، لطالما جلسوا مجروحين يُنقبون عن حطام رصاص هؤلاء أمثال عمار وحسام في أجسادهم فإن الفقر سيظل راسخ بيننا، نحن عطشى لإقامة العدل لا الاستسلام للظروف والخروج عن الصمت ومواجهة العالم بالرغبة في العيش لا الرغبة في الموت الّتي نمارسها، لطالما ولدت شمس مِن رحم الظلام وخرجت نبته مِن رحم القحط إذن هنا أمل نستطيع التمسك بِه، الاستلام ليس حلًا إنَّها حرب لم تنتهِ بينك وبين الحياة لطالما ما زلت حيًّا فإنَّ رفع راية الحق واجب عليك.

وأنا هُنا طوق نجاة الحق الّذي سينتشل الجميع مِن غياهب الظُلم"

~~كريم إدريس~~

~~مُحامي العدل~~

"اعترافات وأقوال المُتهمة أمام النيابة"

«نعم أنا مَن قتلت الطبيب حسام السفطي.

في تمام الساعة السابعة مساءً ذهبت إلىٰ عيادة الطبيب حسام، لم يكُن هناك أيّ أحد، كان سيد قد وصل إلىٰ الصعيد؛ لذلك قُمت باستغلال الموقف ودخلت، كان حينها حسام علىٰ وشك أن يُشعِل لفافة تبغ، التقطها مِن يده وقُمت بالتهام نفسًا ثم قُمتُ بإلقائها علىٰ الأرض ودعستها تحت أقدامي ومِن ثم قُمت بلكمهِ في صدره لكمة أجلسته علىٰ الكُرسيّ الموجود أمام مكتبه الخشبيّ وقُلت له "هذه نهايتك يا سيد حسام، أردت أخذ ولدي مِني وأنا لن أسمح لك أو لأحد غيرك بأخذه مني، ثم قُمت بركله بمُقدمة قدمي في مُقدمة قدمه وقُلتُ له "هيا اعطني يدك" وقمتُ بتقييد يده مِن الخلف ومِن ثم قُمت بإجباره علىٰ تناول سبع حبات مِن حبوب الربو، حاول المُقاومة لكِنه لم يستطع إفلات يده بعد تناوله الأقراص لم يستطع التنفس بشكل جيّد وبعد حوالي ثلاث دقائق انقطعت أنفاسه تمامًا».

"توقيع المُتهم"

~~زينة محمد عليوة جاد الله~~

"اعترافات وأقوال المُتهم أمام النيابة"

«نعم قُمتُ بقتل ابني رياض...

لا أحد سيأخذ مني زينة، لم أقتله لأيّ دوافع انتقامية، لكنني قُمتُ بقتله؛ لأنَّه أخذ اهتمام زينة وحبّها وكلّ شيء.. كلّ شيء.

أعذرني يا سيدي فـعندما تُحِب حقًا يُنتفى العقل والمنطق.

عندما تُحب حقًا تجِد نفسك مسلوب الحكمة، أعمى البصر والبصيرة دون إرادة مِنك، فَمِن العبث حقًا أن تُناقشني في عِشقي لها، ومِن العبث أيضًا أن تسألني لِمَ فعلت ولِمَ لَمْ أفعل.. لَمْ يكُن بإرادتي أبدًا، صدقني لو كان بإمكاني لكُنتُ انتزعتها مِن قلبي وأنقذت كرامتي الّتي أهدرتُها في سُبلِ الركض خلفها ولم تُبادلني يومًا نصف الحُب الّذي أكِنه لها (صمت لعدة دقائق ثم تنهد وقال)

في تمام الساعة الواحِدة والنصف ليلة الثامن وعشرون مِن فبراير كانت زينة ليست موجودة بالغرفة، دخلت الغرفة وقُمت بسد المجرىٰ الهوائي لرياض بواسطة منديلًا قُماشيًّا ومِن ثم خرجت وعُدتُ إلىٰ الفندق مرَّة أخرىٰ.

أما عن قضية الإتجار بالبشر المُتهم بِها فأنا أقر بكامل قواي العقلية باعترافاتي بمشاركة حُسام وقاسم وعمر زملائي بالإتجار بالفقراء وهجرتهم إلىٰ الخارج وإجبارهم علىٰ بيع أعضائهم وممارسة أشياء غير مشروعة».

"توقيع المُتهم"

~~عمار حسن عبد التواب البحيري~~

" تقارير الطب النفسيّ لحالة المُتهم"

«المريض يُعاني مِن حالة نفسية علىٰ أثرها يُبالغ في القلق والتوتر والاهتمام الزائدة تجاه بعض الأشخاص.

كما أكدت الدراسات النفسية الّتي أُجريت علىٰ المريض أنَّه يُعاني مِن "حب تملك شديد" تجاه زوجته؛ وذلك نتيجة لعوامل فطرية نشأت بِداخِل المريض منذ الصِغر.. فالقلق الشديد والاضطرابات الداخلية أدت إلىٰ ظهور الأنانية والنرجسية والرغبة في امتلاك ما هو للغير وامتلاك الأشخاص المُقربين إليه والسيطرة علىٰ مشاعرهم.

ونتيجة لتلك الاضطرابات الّتي لم يستطع المريض السيطرة عليها وترك العنان للهواجس النفسية في امتلاكه قام بقتل وليده الصغير؛ نتيجة لاهتمام زوجته الزائد بالطفل وشعوره بالقلق والتوتر خوفًا مِن أن يُشاركه الصغير الاهتمام والمشاعر الّتي تُبادلها له الأم قررَّ التخلُص مِنه، ولكن ليس لأسباب انتقامية أو عدوانية بينه وبين الرضيع.. بل نتيجة لعدة عوامل نفسيّة أوحت له أنَّه سيستطيع السيطرة علىٰ زوجته مرَّة أخرىٰ وامتلاكها».

«الخاتمة»

مرحبًا عزيزي القارئ مِن جديد، ها قد أصبحنا وحدنا.. أخيرًا وصلنا إلىٰ هنا بعد رحلة طويلة أثارت حريقًا بين غُرف كريمتك وشنت حربًا بينك وبين أفكارك للبحث عن القاتِل، حمدًا لله علىٰ سلامتِك يا عزيزي، مِن أعماق قلبي أحييك علىٰ مجهودك الشاق في البحث عن القاتِل الحقيقي أتمنىٰ أنْ تكون قتلته وعلقت رأسه علىٰ مشانِق الظروف الّتي جعلته يأكُل مِن لحم الأبرياء، أو ارتشفت مِن دمه كوبين، أو قُمت بتقطيعه إربًا.. إربًا وألقيته علىٰ الطرقات تأكل الذئاب مِن جسده.. إنَّه الفقر وليس سواه يستحق الإعدام.

يقول الإمام علي بن أبي طالب (كرم الله وجه)

« لو كان الفقر رجلًا لقتلته».

تمـــــت بحمد الله

"أميرة محمود فتحي"